مئة سنة ضوء

رواية

كريم سالم

اسم الكتـــاب : مليون سنة فرق
التأليــــــف : كريـم سالـــم
رسـم الغلاف : ميــار عــــزام
إخـــراج فنـــي : هيـــام فهيـم
الطبعـــــة : الأولـــــــــى
رقم الإيـــداع : 2019 / 14364
الترقيم الدولي : 978-977-835-127-9
الناشـــــــر : دار زحمة كُتّاب للنشـــر والتوزيع
١٥ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة - مصر

Facebook : دار زحمة كتاب للنشر
Email : za7ma-kotab@hotmail.com
Tel : 002 012051100596





مليون سنة فرق

كريم سالم

الإهداء

إلى جَدِّي .. من علمني القراءة، من جعلني أعشقها
حتى صارت لا تكفيني فأدمنت الكتابة.
إلى أبي وأمي.. من علموني أن أفعل ما أحب،
أن أغوص في عالمي دون أدنى قيود.
إلى زوجتي، حبيبتي، طالما ساندتني ووقفت جانبي،
فلولاها لم أستطع إكمال رواياتي.
إلى ابنتي، من أعطت للحياة طعمًا جديدًا.
إلى محمد محسن صديقي، طالما أُعجبت بكتابته وفنِّه الجميل، وحِسِّه
الفكاهي الذي شجعني على أن أواصل...
أتمنى له النجاح في روايته الجديدة والتي ستهزُّ القُرَّاء بجمالها.

كريم سالم

الفصل الأول

«إنَّ القتيلَ ليسَ بريءً من تُهمةِ القَتْل».

جبران خليل جبران

عندما ترى جُثَّة أمامك، يبدأ الرعب في التمَلُّك منك، تتلاعب الكوابيس بك، حتى تصير عبدًا لها؛ فترتعد خوفًا، تكره أن تكون وحيدًا ولا تجد نفسك بين التجمعات، ثم تتوالى مشاهد الموت في حياتك، حتى تتعوَّد عيناك تقبُّل الأمر، والعبد داخلك يبدأ في الثَّوَران. فتصبح الكوابيس عادة يوميَّة، وينمو شعور بالتبلُّد واللا مبالاة، تقلُّ تدريجيًّا من حياتك لتصبح شيئًا نادرًا قلَّما تتذكره، هذا هو أنا ضابط شرطة في قسم الجرائم.

استيقظت صباحًا على رنة هاتفي المحمول محملة بأخبار جُثَّة جديدة لا بُدَّ لي من رؤيتها، وكما قلت لكم أصبح قلبي متبلدًا؛ فارتديت ملابسي بلا اكتراث وأدرت محرك سيارتي ذاهبًا إلى موقع الجريمة.

لا أعرف كيف يريحني منظر عربات الشُّرْطَة بصوتها المميز الذي يصمُّ الآذان، يُشعرني بالأمان عندما أرى العساكر يطوقون محيط الجريمة على شكل نصف دائري. ركنت سيارتي ولم أَنْسَ نظارتي الشمسيَّة التي تُشعرني بالوقار، وأنا أتقدم للشريط الحدودي اللامع المكتوب عليه "ممنوع الاقتراب"، أصبح هذا المنظر شيئًا اعتياديًّا لهذا النوع من الجرائم.

لمحت أحد العساكر يتكلم مع صحفي يحاول الدخول، توجهت إليه ببطء، وبنبرة مستفزَّة قلت:
"مش قالَّك مفيش دخول، ولَّا تحب تِضِّرب لحد متقول يا بس... يالَّاا من هنا وبلاش كُتر كلام".
صاح الصحفي معترضًا فحدقت بعينين رماديتين كالحجر جعلته يتراجع، وأخذ يلوي فمه امتعاضًا:
- "بس يا حضرة الظابط"...
تأجج غيظي وصرخت فيه:
- "عسكري... مَشِّي الواد ده من هنا".
ارتعد خوفًا وفر سريعًا دونَ أنْ ينظر خلفه، ابتسمت للعسكري، أكملت طريقي للدخول لبناية العمارة بعد أن استشف الجميع بأني ضابط، فلم يجرؤ أحد على سؤالي عن هُوِيَّتي.

****

طبعت قبلةً على خَدِّ أُمِّي وأنا أداعبها:
- "صباح الخير يا أحلى أم في الدنيا".
فانفجرت أُمِّي ضاحكةً وهي تجلس جواري إلى مائدة الإفطار:
- "متخدنيش في دوكة، لازم تخلَّصي فطارك يا نادية، مش معقول تروحي الشغل على لحم بطنك".

جلست جوارها وقلت لها مازحةً:

- "النهاردة أنا فاضية، هفضل معاكي اليوم كله".

ابتسمت وقالت لي في تودُّد ملحوظ:

- "باباكي تعبان شوية، يا ريت تكلِّميه".

لم أكترث لما تقول، فأكملت كلامها:

- "يا بنتي مش معنى أن إحنا مِطَّلقين، يبقى متكلمهوش".

****

لم يعجبني حديثها، فقد تركنا منذ سنين، أعيش مع أُمِّي وأرعاها. لم يفكر فينا، كيف نعيش؟ وكيف نقاوم صعوبات الحياة؟ حتى بدأت أنْسَاه. بدأت أُمِّي في سرد بعض القيَم والأخلاق عن الود واحترام الأب. تركتها تُنهي ما تود قوله ثم رددت على مضض مُنهيةً هذا الحديث:

- "ربنا يسهل لما أفضَى هكلمه".

قطع رنين المحمول حديثنا، وقد كان كالنجدة بالنسبة ليَّ تهرُّبًا من حديثنا، وضعته على أذني وقلت:

- "ألو!

- آنسة نادية، أنا الظابط هيثم.

- أيوه.

- في جريمة قتل في الزمالك، هبعتلك العنوان والظابط أحمد هيكون في انتظارك".

أغلقت معه الهاتف، ارتشفت رشفات سريعة من كوب الشاي، وأنا أودع أُمِّي آسفةً:

- "معلش يا ماما عندي شغل، أنا حجزتلك معاد للدكتور كمان يومين، هنروحوا سوا".

تنهدت أُمِّي وقالت مهمهمةً:

- "طب خُدي سندويتش معاكي تكليه في الطريق".

فابتسمت لها وأنا أخرج من باب الشقة، ثم تساءَلت في سري، تُرى ما علاقتي بجريمة القتل، فعملي كان استشارات لا أكثر!

****

ما إن أنهيت مشكلة الصحفي، وعبر الشريط اللاصق، صعدت على السلم ببطء، مستكشفًا المكان. تقع العمارة في أحد أحياء الزمالك بطابعه القديم ذي الممرات الواسعة، والأعمدة الشاهقة مما يُذكِّرك بعثمان البوَّاب الرجل الأسمر الذي يظهر في الأفلام. يأتي ليسألك "مين حضرتك"، أكملت صعودي حتى وصلت إلى شقة القتيل.

كان طابَع الشقة يوحي بطراز الأربعينيات. الأسقف الشاهقة المزدانة بالنقوش، وبلاط الأرض العريض ذو مربعات صغيرة ذهبت

بألوانها الأقدام، والأثاث الخشبي الرصين له رائحة عتيقة، أحال القِدَم لونها وجعلها تهترئ في أكثر من موقع، تناثرت الشرفات الكبيرة مطلةً على الشارع. وأثار انتباهي الكتب، فكانت في كل مكان، في الصالة، على مائدة الطعام، وبجوار التلفاز.

أمسكت بأحد الكتب، وكان باللغة الإنجليزية، عنوانه "الملوك والفراعنة". بدأت أقلِّب في صفحاته، كان يتكلم عن حياة الفراعنة، عاداتهم الاجتماعيَّة، وضعته جانبًا.

بدأت أنظر على أسماء الكتب "أواخر حياة رمسيس الثاني"، "الفراعنة والقبور"، "البَرْديَّات"، جميعها تتعلق بالتاريخ وبالأخص العصر الفرعوني.

قاطعني أحد الضباط وقدم نفسه لي وهو يؤدِّي التحية العسكريَّة:

- "ملازم أول هيثم يا فندم في خدمة حضرتك.

سألته:

- "فين القتيل"؟

فأشار إلى الحمام فتوجهت إليه مباشرةً، وهَا أَنا أقف أمام القتيل، وجهه شديد البياض، شعره يميل للاحمرار، وعيناه الزرقاوان تدلان على أنَّه ليس مصريًّا، تأملت وجهه بحثًا عن أي علامات، فلاحظت الذهول على وجهه، وبعض الانتفاخ، اقتربت أكثر فلم ألحظ أي

جروح، أو آثار أداة حادة بالجوار، نظرت إلى عنقه لأجد بعض الاحمرار.

استدرت حولي وقلت بعين خبير حتى يظهر عليهم الإعجاب والانبهار:

- "مات مخنوق".

لم أنتظر جوابهم، فأكملت بصوتٍ تملؤه الجِدّية:

- "مين أول واحد وصل"؟

تقدم الملازم هيثم وبحزمٍ شديدٍ أجاب:

- "إحنا هنا من الصبح، الورقة دي فيها كل الاستنتاجات، هنحطها في التقرير المبدئي".

ثم مد يديه بالورقة لأخذها وهو يكمل:

- "لو حضرتك عايز تعدل فيها حاجة، قبل ما نرسلها، أنا تحت أمرك.

ابتسمت وقلت مخففًا من التوتر المحيط:

- "أنا بس عايزة أشوف وصلنا لفين".

أخذت الأوراق من يديه، شرعت في قراءتها، وقد جاءت كالآتي:

"بعد سؤال الجيران وحارس العقار، وضح لنا بأن القتيل مواطن أمريكي يُدعَى "مارك فيكتور"، جاء إلى مصر منذ أربعة أشهر، يعيش وحيدًا، يعمل عَالِم آثار، يذهب يوميًّا إلى جامعة عين شمس للعمل على بعض الأبحاث؛ لذا فهو استأجر هذه الشقة حتى يتسنى له الدِّراسة".

نظرت لهيثم وسألته مُستفهمًا:

- "في حاجة مسروقة؟ حاجة مش في مكانها؟... جايز دي كانت حادثة سرقة عادية، وتطورت لجريمة قتل.

رد بثقة:

- "كل حاجة كانت في مكانها" ثم أشار إلى باب الشقة، والشبابيك وهو يكمل:

- "حتى الباب مفيش فيه أي خدش، أو محاولة فتح عنيفة، والشبابيك كمان كلها سليمة"...

توقف للحظات، أخذ نَفَسًا عميقًا، ثم قال مؤكِّدًا:

"كدة تبقى قتل مُتعمَّد، وكمان القاتل دخل بسهولة كأنه معاه المفتاح، أو أن القتيل هو إللي فتحله الباب".

ربَّتُ على كتفه وقلت بنبرة تشجيعيَّة:

- "شغل عالي... كمِّل بحث وبلغني لو فيه جديد... أنا هاخد لفَّة في الشقة".

ابتسم هيثم على هذه الثقة، ثم ذهب ليكمل عمله، بدأت في السير بخطوات بطيئة أتجول بعيني في أنحاء البيت، توجهت إلى مكتب القتيل، كان ينمُّ عن ذوق رفيع، يختلف عمَّا يوحي به البيت، يبدو أنَّه كان يقضي معظم وقته في هذا المكتب.

انتشرت اللوحات ذات الطابَع الأوروبي في الغُرْفَة، بعض التحف في الأركان، وكثير من الكتب التي تتكلم عن الفراعنة.

طرق هيثم باب المكتب، دخل وهو يحمل معه لِفَافَة من الأوراق القديمة، وقال بجِدِّية:

- "الورق ده كان مستخبِّي جوَّة تمثال في الصالون".

أمسكت بها وأنا أسأله:

- "رَفَعْت البصمات؟".

فرَدَّ بثقة:

- "تمام، وهبعتها المعمل الجنائي مع باقي البصمات الموجودة في الشقة".

بلهفة تسابقت يداي في فتح اللِّفافة قبل أن تقع عيناي على الرسوم العجيبة التي لم أفهم منها شيئًا، فلمس الأوراق يوحي بقِدَمها، تبدو لي كأوراق البَرْديّ، توقعت أن يكون هذا الرسم هو لغة فرعونية، ولكن لا بُدَّ لي من التأكد أولًا، وجهت كلامي لهيثم وأنا ما زلت أطَّلع على البَرْديَّة:

- "عايز خبير في الآثار وخصوصًا التاريخ الفرعوني".

ذهب هيثم لتنفيذ الأوامر، سرى في جسدي تيار بارد وشعرت بنقص النيكوتين؛ أخرجت السيجارة من جيبي، وما إن استنشقتها حتى بدأت أرتب أفكاري، أحاول أن أجد رابطًا أسير نحوه، دليلًا

يرشدني للطريق. تُرَى، أتكون الجريمة متعلقة بعمله؟ وما المكتوب في هذه البَرْديَّة؟ هل هي لغة فرعونية؟ مر الوقت سريعًا وأنا أسير بين طرقات المنزل مُحاولًا فهم ما يحدث.

لَمْ تَمْضِ ساعات قليلة حتى جاء هيثم، وهو يُعلمني بوصول الخبير، فأشرت بالسماح لدخوله، فكانت صدمتي عندما رأيته... أو بالأدق رأيتها...

****

قضيت ليلتي في قسم الشُّرْطَة أستبطئ الصباح، لا أعرف لماذا تركوني في هذا المكتب طيلةَ الوقت، وجريمتي هي رؤيتي لشيءٍ، أردت الإبلاغ عنه، أهذا ذنبي، ليتني ما فعلت ذلك!

حاولت الخروج من المكتب عِدَّة مرات؛ ولكن أمين الشُّرْطَة المنتصب أمام الباب لم يدعني أخرج وهو يردد:

- "معنديش أوامر بالخروج... اتفضلي استنِّي في المكتب، والظابط مؤمن جاي في السكَّة".

فأعود مجددًا ليس لديَّ ما أفعله، سوى الانتظار.

أبحث عن ألف حيلة لمقاومة التعب، ومع مرور الوقت تساقط رأسي أملًا في النُّعاس إلى أن غلبني النوم، تركته يأخذني باستسلام تام، وضعت ذراعي على المكتب، وغصتُ في نومٍ عميق.

لم أفِقْ منه إلا على صوت طرقعة الباب، ودخول الضابط مصطنعًا الأسف:

- "آسف على التأخير بس مكنش ينفع أسيبك غير لما أفهم كل حاجة".

فركت عيني من الإجهاد، لمحت شعاع الصباح يأتي من خلف النافذة، لا بُدَّ أنني غفلت لساعات.

وبصوت يملؤه الألم والاشمئزاز:

- "أنا معنديش جديد، كل إللي أعرفه قولته إمبارح".

ثم رجوته مُتوسِّلةً أن يتركني أذهب إلى البيت، فلم أعُد أرى أمامي.

ابتسم وهو يقول لأمين الشُّرْطَة:

- "اتنين قهوة وفطار للآنسَة".

ثم نظر إليَّ وقال مُحاولًا استفزازي:

- "هنفطر مع بعض وندردش شوية صغيَّرين".

لم يترك لي مساحة للاعتراض وهو يشعل سيجارته، ينفخها في الهواء وكأنه يستمتع بدخانها الذي يُغرق المكان، ثم سألني:

- "بتدخَّني؟

- لأ"!

أخذ يقرأ في المحضر بصوتٍ مرتفعٍ وكأنه يُذكِّرني بما حدث:

- "مكتوب هنا أن اسمك مريم".

ثم وضع المحضر جانبًا، وضرب المكتب بكلتا يديه محدثًا طرقعة مكتومة مصاحبة لوقوفه الانفعالي، صوته الأجش الغليظ يصيح مُشكِّكًا:

- "الكلام المكتوب ده طبعًا ميدخلش عليَّا، ولا ممكن أصدق منه حرف".

تصنَّع الأسف وهو يجلس ليعود صوته الهادئ:

- "عايزاني أصدقك... اقنعيني".

بدا الارتباك على صوتي:

- "يا فندم أنا كنت براقبه وبع"...

أشار إليَّ بالصمت، ثم قال مستهزئًا:

- "أنت هتقولي المكتوب.. قريته خلاص. عايزك تحكيلي كل حاجة... ويا ريت نبتدي من الأول... من الطفولة.

تراجعت مندهشةً، فما يقوله يفوق الخيال، تُرَى ماذا فعلت، يا ليتني لم آتِ إلى هنا. فأنا في مأزق لا أعرف الخلاص منه.

****

لماذا توقعت أن يكون الخبير رجلًا، ألكثرة تعاملي مع الرجال، أم لعدم تخيُّلي وجود النساء في عملنا، والأدهى من ذلك أنها لم تكن كبقية النساء بل كانت أيقونة في الجمال.

لا أعرف ما لفت انتباهي لها هل هو لون العيون العسلي، أم الرموش الكثيفة كلون ليالي الشتاء، فالكحل الذي رسمت به عينيها يتلألأ كالقمر وسط النجوم، ثم جاء هواء النافذة، ليتطاير شعرها وكأنها دعوة لليوناردو بالعودة للحياة ورسم أروع لوحاته.

يبدو أن نظري لها أصبح فاضحًا، حتى إن الملازم هيثم لاحظ ذلك فحمحم قائلًا:

- "الآنسة نادية إبراهيم، خبيرة آثار فرعونيَّة، وبتفيدنا في أي استشارة بنحتاجها".

ابتسمت وأنا لا أصدق كوني قد قاربت على الأربعين وقلبي يخفق فرحًا، ينجذب هكذا إلى امرأة، ولكن سرعان ما استجمعت قوتي وعدت إلى طبيعتي، مددت يدي مصافحًا:

- "الظابط "أحمد شريف" من قسم الجنايات".

تقدَّمَت نحوي، وهي ترفع يديها بطريقة عملية وجِدّية مقصودة، وقد ساعدها في إظهار جديتها اختيارها للملابس الرسميَّة، ولكن أنوثتها طغت على كل هذا.

أدركَتْ انبهاري بها فقد كان مفضوحًا فحاولت تذكيري بلباقتها أننا في العمل، وقالت بحزم:

- "أهلًا وسهلًا، يا ترى في خدمة أقدر أعملها"؟

ثم دخلت في صلب الموضوع:

- "قالولي إن فيه ورق شاكِّين أنه بردي... عايزين تعرفوا إيه المكتوب... يا ترى ممكن أشوفه"؟

أومأت برأسي مؤكِّدًا، مددت يدي أعطيها لفافة الأوراق برفق، فأخذتْها في لهفة، وتفحَّصتها بعين الخبير قبل أن تجيب بثقة:

- "فعلًا هي أوراق بردي أصلية، مش إللي في الأسواق، والكلام مكتوب هيروغلفي، والختم ده للملوك مش سهل حد يزوَّروا".

ثم أنهت كلامها مؤكدةً:

- "الحاجات دي مش سهل تكون مع الناس كدة، دي لازم تكون مع الدولة ومحفوظة بشكل رسمي".

فسألتها:

- "طب هي ممكن تكون مسروقة"؟

ترددت لحظات قبل أن تجيب:

- "ممكن، كان الملوك والأمراء بياخدوا في قبورهم حجات كتير من ضمنها البرديات، وفي قبور كتير بتتسرق، الدولة متعرفش حاجة عنها، أنت عارف مصر مليانة قبور فراعنة وكل يوم فيه اكتشافات مستمرة".

أومأت برأسي متفهمًا، أظهرت عدم اكتراث لكلامها مما زادها حنقًا، ظهر واضحًا على وجهها، وجهت كلامي إليها متسائلًا:

- "تقدري تترجمي إيه المكتوب؟

- أكيد... بس لازم أكون في مكتبي عشان أترجمها حرفيًّا".

نظرت مرة أخرى إلى الأوراق، ثم قالت وهي ما زالت تقرأ دونَ أنْ تنظر إليَّ:

- "دي رسالة حب من أمير للحبيبة".

فغرتُ فمي اندهاشًا من كلامها فلم أتخيل أن الفراعنة يعرفون الحب، ورأت نادية هذه الدهشة في وجهي فضحكت:

- "الفراعنة بشر، بيحبُّوا ويتحبُّوا".

ثم أكملت متسائلة:

- "ممكن أخدها المكتب، عشان أترجمها مظبوط"؟

فقلت لها:

- ده صعب، البرديات تُعتبر من الأحراز وهنبعتها المعمل، بس ممكن تصوريها وتاخديها، طبعًا بعد ما تملي الأوراق الرسمية".

قالت متفهمةً ومحاولةً إنهاء اللقاء:

- "خلاص هاخد النسخة دي معايا.

مدت يديها للسلام معلنةً انتهاء الحوار، كنت أريد التحدث معها أكثر، ولكن ليس باليد حيلة، صافحتها وأنا أشكرها على مجهودها، وأؤكد إنها ستكون مفيدة جدًّا لنا في هذه القضية. ابتسمت لي معلنةً الموافقة، ثم انصرفت. ظللت أنظر إليها حتى اختفت من أمامي؛

تملَّكني شعور غريب تجاهها، شعور بدأ بدقات قلبي وقد ظننته توقف.

****

لم أجد حلًّا سوى اتباع أوامر الضابط مؤمن، فمن الواضح أنَّه لن يتركني حتى يزيل الشكوك التي وضعها لنفسه.

ابتلعت ريقي في محاولة لتمالك نفسي، طلبت منه كوبًا من الماء. وأنا أستحضر بماذا سأبدأ، هل منذ دخول الإنترنت إلى بيتي! ومعرفتي لبرامج المحادثة مع الأشخاص.

أم منذ نجاحي في الثانوية واختياري لكلية الحاسبات والمعلومات رغم عدم موافقة أهلي دخولها نظرًا لما يُقال من أنها كلية للذكور فقط، ولن تستطيع الإناث استيعاب كل هذا الكَمّ من المسائل المُعقَّدة.

ما زال حديث أُمّي يدور بخَلَدِي، عندما تلمحني أجلس أمام الحاسوب بالساعات فتقول بلا فهم:

- "يا بنتي الكمبيوتر ده مش جوزك... عايزة أفرح بيكي".

فأقوم وأحتضنها لأستمد منها الحنان، ثم أقول مطمئنةً:

- "جواز إيه بس يا ماما، أنا لسة مخلَّصتِش تعليم".

فتقول وقد أعلنت استسلامها:

- "تعليم إيه بس، البنات بيتجوزوا ويقعدوا في البيت".

ضحكت وأنا أداعبها:

- "بكرة هكون مهندسة كمبيوتر أدّ الدنيا، وهتفرحي بِيًّا".

فتتمتم بكلمات غير مفهومة، تتركني لأعاود الجلوس إلى الحاسوب، أُبحِر في شبكة الإنترنت، أتعرف على أشخاص من أنحاء الأرض. أذكر جيدًا محادثتي لشخص مصري، قرر العودة إلى مصر، وتنفيذ ما تعلمه بها، أعجبني تفكيره، أعطيته من المعلومات ما يفيده وجاء اليوم الذي قال لي بأنه سيأتي بعد يومين وسيكون سعيدًا إذا استطاع أن يراني.

داخَلَنِي الشك، تُرى ماذا يريد؟؟؟

****

أراه يأتي من بعيد يقترب... يقترب أكثر فأكثر ... طالما حاولت تحاشي النظر إليه فكثيرًا ما يقولون إن الابتعاد عنه غنيمة... وقد وافقتهم، جردت نفسي من الأحاسيس، من المشاعر، من كل حرف في كلمة "حب".

وضعت الحزم والجِدِّية أمامي، كان هذا سر نجاحي في عملي، بكوني أنثى أجد كثيرًا من الصعاب في ممارسة حياتي العملية، مرات عديدة رأيته يدنو مني؛ ولكني تعاملت معه بجِدِّية، أغلقت قلبي إلى الأبد، لن أجعله ينبض مرة أخرى، لن أَدَعَ عواطفي تحكمني، وسيكون عقلي هو القائد، هو المسؤول، هو الذي يرسلني حيث أريد.

لا أنكر أنَّه شعور رائع وجذاب، أن ترى الحياة مقبلة عليك، تحمل في طيَّاتها السعادة، تستمتع باللحظات التي لا تُنسى، كم هي مسلية، ممتعة، خَلاَّبة!

كم أن قوامه يُذهلني، وشَعْره الناعم يفتنني!، ابتسامته تسحرني، فرؤيتي له في شقة القتيل حركت داخلي ما حاولت إخفاءه سنوات.

لكني تعاملت معه اليوم بجفاء لا بُدَّ أنَّه لاحظ ذلك، لا بُدَّ أنَّه اعتقد أنني شخصية كئيبة، ومُملَّة. لماذا؟! لماذا تعاملت معه اليوم هكذا؟! فهو لم يفعل شيئًا، بل على العكس، لقد قابل معاملتي له بطيبة، رأيتها في عينيه، بحنان لم أَرَ مثله، وهو يسلم عليَّ... كم أنا حمقاء!!! فإن تصرفي اليوم لم يكن الأحسن على الإطلاق. ولكن لا يهم... فعملي سيُنسيني كل هذه المهاترات.

****

دخلت أُمِّي وأيقظتني من أحلامي، وهي تقول بحنان:

- "نادية، أعملِّك نسكافيه"؟

ابتسمت لها:

- "يا ريت يا ماما، أنا عندي شغل كتير شكلي سهرانة النهاردة.

- ربنا يقوِّيكي، ومتنسيش تكلمي باباكي، أنا عارفة أنك مكلمتهوش".

نفخت الهواء منزعجة وصحت بعد أن فقدت أعصابي:

- "إنتي إزاي يا ماما عايزاني أسأل عليه وهو اتجوِّز عليكي. عادي كدة مش فارقة معاكي؟!

- يا بنتي أنا بس خايفة عليكي، خايفة أموت وميكونش حد معاكي".

ثم بدأت في البكاء، فقمت إليها وحضنتها، طبطبت عليها:

- "متخفيش يا ماما، إن شاء الله هنروح للدكتور وهيطمِّنا".

ابتسمت في محاولة لإضحاكها:

- "وبعدين بابا إيه إللي أروحله، أنا مليش غيرك في الدنيا".

رأيت الدموع ما زالت في عينيها:

- "هاروح أحضَّرلك النسكافيه".

جلست إلى مكتبي من جديد، لملمت الأوراق المنسوخة من البَرْديّ، تفحَّصت الختم الملكي حتى أتأكد من صحته، وقد قارنته بما لديَّ من أختام، وكما توقعت فهو غير مزوَّر، وكان يتبع الأسرة التاسعة عشرة، وهي من أقوى الأُسَر الفرعونيَّة، وأكثرها تأثيرًا في التاريخ.

ما أثار دهشتي هو الاسم المكتوب عليها وهو "رمسيس الثاني"... يا لهذا الملك!! كم يمتلك من العجائب والأسرار!! تُرى، ماذا سنجد في هذه الرسالة من جديد؟!

بعد أن تأكدت من كاتب الرسالة، وأن فحواها لن تكون مزوَّرة، بل إن ما هو مكتوب الآن هو بأمر رمسيس نفسه؛ مما أثار في نفسي الفضول لمعرفة ماذا يوجد بها، فأسرعت في ترجمتها كما وجدتها.

"حبيبتي... يا أسمى ما عرفته إلهتي وربة الفتنة والجمال، مر على لقائنا عام كامل، وأنا أحاول أن آتي بك هنا... إلى قصري الصغير، الذي طالما حلمت أن يجمعنا معًا، لقد اقتربت الأيام، وسأعد العدَّة لمراسم الزواج...".

أكملت ترجمة باقي الرسالة مما أصابني بالإحباط، فقد كنا نعلم كم أن "رمسيس الثاني" مُولَع بالنساء، وكم من السيدات اللاتي واعدهن بأن يكُنَّ سيدات القصر، رغم صغر سِنِّه، ولكنه كان يتركهن بعد إشباع رغباته، يبدو أنَّه لا يوجد جديد في هذه الرسائل، ولكنه عملي، يجب عليَّ ترجمة باقي الرسائل، فترجمت الرسالة الثانية، والتي لم تأتِ بالجديد، كانت في الفترة الزمنية نفسها للرسالة الأولى، ويبدو من الأحداث أن هذه الخطابات قبل أن يصبح ملك البلاد، أي في سن الثامنة عشرة أو أقل، وكانت أيضًا للفتاة نفسها التي لم أَرَ اسمها في الرسالتين، وهو أمر غريب.

فتحت الرسالة الثالثة فلمعت عيناي من الدهشة، وسَرَت قُشَعْريرة في جسدي وأنا أنظر لمرسلها، فهي لم تكن من رمسيس الثاني بل إليه.

كتبتها جميلة الجميلات، وعشيقته التي شيد لها معبدًا باسمها، فأصبح تخليدًا لها بعد وفاتها، وليعلم العالم مقدار حبه لها، وهي الملكة "نفرتاري".

عندما انتهيت من قراءة الرسالة شعرت بزخم من الطاقة في عقلي وأنا أفكر فيما قرأته، انتابني الذهول، فأصبحت كالمأخوذة من حُلْم إلى حلم، أنتظر صفعة على وجهي لتوقظني.

أحسست أن الكون كله انقلب رأسًا على عَقِب حتى يأتي إليَ بهذا الكشف العظيم، فما قرأته الآن سيجعلنا نعيد كتابة التاريخ مرة أخرى، بل وسيساعدنا على فهم كثير من الأمور الغامضة في حياة هذا الملك.

جاهدت نفسي للسيطرة على توتري، راجعت ما يحدث، وتخيَّلت ما سيحدث في الأيام القادمة.

لكن عليَّ إبلاغ الضابط أحمد بالمستجدات، فبالتأكيد ستفيده في قضيته... لذا يجب عليَّ رؤيته مرة أخرى... وها قد احمرَّ قلبي مرة أخرى.

****

جلست إلى مكتبي، أخرجت هاتفي وأنا أطالع الصفحات الإلكترونيَّة التي أصبحت تقفز أمام عينيك، بحثت عن أي شيء يشير إلى نشر القضية، لأعرف هل من تسريبات تمت.

طلبت من عبد الحيّ فنجان قهوة كعادتي كل صباح، لاحظت أنَّه تَلَكَّأ ودمدم بصوت خافت، لم أُعِرْه اهتمامًا، ثم أكملت تصفُّحي.

مضت نصف ساعة ولم يحضر القهوة، ناديته بصوتٍ فَجّ:

- "عبد الحيّ"!

أتى مهرولًا، تحدث مُسرعًا والكلمات تتساقط من فمه:

- "آسف على التأخير... أصل الصحافة مقلوبة بَرَّة عشان الأمريكاني إللي مات إمبارح".

قهقهت ضاحكةً وداعبته:

- "طب والقهوة بتاعتي علاقتها إيه؟... ولَّا هي ودانك دي مش هتبطَّل تسمع"!

قهقه هو الآخر وتراجع بحركة مسرحية منحنيًا إلى الأمام وهو يقول:

- "حالًا القهوة هتكون موجودة.

تركته يذهب وعرفت أنَّه لا جدوى من البحث عن تسريب، فكل شيء أصبح معروفًا.

رأيت تقرير الجريمة مُلقى على المكتب، أمسكته، فلم أجد فيه شيئًا جديدًا يلهمني، ويعطيني بريقًا من الأمل، فالبصمات في الشقة كلها للقتيل، ولا يوجد أي مسروقات، أو آثار لمحاولة القتال، وكل هذا يعني أن القاتل محترف، يعرف ماذا يفعل؛ مما يعطي احتمال أنَّه مُستأجَر من قِبَل شخص ما.

ها قد تم استدعاء زملائه في العمل، وقد أكَّدوا أن القتيل قليل الكلام، دقيق في مواعيد الانصراف، والحضور لا يذكر أنَّه تغيب

يومًا، وقد أكَّدوا جميعًا أن البروفيسور "صبحي سعدان" هو أقرب الناس إليه، كثيرًا ما كانا يعملان معًا؛ نظرًا لتخصصهما في التاريخ الفرعوني، وحبهما الشديد له.

وهذا كل ما جاء بالتقرير.

بحثت في هاتفي عن رقم الملازم هيثم، وما إن رد عليَّ حتى أجبت:

- "ألو أيوة يا هيثم. في دكتور زميل البروفيسور مارك اسمه صبحي سعدان.

- تمام يا فندم، ساعة وهيكون عندك كل حاجة عن حياته.

- جميل، عشان عايز أقابله النهاردة.

- الساعة ستة هيكون عندك.

- لأ خلِّيها في مكان عام. عايزها تكون دردشة أكتر منها رسمي.

- أوامر معاليك".

أنهيت المكالمة، وها قد بدأ التوتر يعود من جديد لا أعلم لماذا، أهذا بسبب القضية المُعقَّدة، أم بسبب شيء آخر شيء حدث بالأمس، وشتَّت تفكيري، تُرى أين هي الآن؟ ماذا تفعل؟ ولماذا جذبتني إليها!!!!.

أعلم أني قادر على مكالمتها الآن، والتحدث معها بدواعي الاستفسار عمَّا توصلت إليه؛ ولكني أريد أكثر من ذلك، أريد رؤيتها، أريد أن أعيش في عالمها، أتوغل فيما يدور بتفكيرها، كم كانت رقيقة

المشاعر، فمحاولتها إظهار الجِدِّية في عملها طوال الوقت أعجبتني، جعلتني أشعر بمدى الضعف الذي تخفيه، مدى ما تكنُّه من أحزان، استشعرها قلبي، بدأت أراها بعيني، وألمسها بيدي.

رَنَّ هاتفي... وكان آخر ما توقعته أنها هي، تكلمني على هاتفي، تأتي إليَّ بما حاولت الوصول له، أمسكت بدقات قلبي، وضعت الهاتف على أُذني في محاولة للحفاظ على هدوء مشاعري، وقلت وكأني منهمك في العمل:

- "ألو...

- أنا الدكتورة "نادية" اتقابلنا إمبارح، في قضية الزمالك، عشان أترجم الرسائل الفرعونيَّة.

- أيوة إزيِّك ... إيه الأخبار، في جديد؟

- أنا ترجمتها خلاص، بس مش عارفة هتفيدك ولَّا لأ... ده اكتشاف عظيم وهيغير من مفهومنا للتاريخ. ده"...

فقاطعتُها بلهفة:

- "مش هينفع في التليفون... ممكن نتقابل"؟

فلمستُ في صوتها هول المفاجأة، كأنها لا تتوقع مني هذا الطلب، مما جعلني أندم على تصرفي السمج، وغير المدروس، لكنها أسعدتني وهي تقول:

- "أكيد، إمتى"؟

علت الفرحة صوتي؛ مما جعلني أبدو صبيًّا وأنا أقول:

- "النهاردة هأقابل البروفسيور "صبحي سعدان". الساعة ستة، بس عايز أشوفك قبليها".

لم ترد على ما قلت؛ مما جعلني أبدو غبيًّا، فأسرعت مُصححًا ما بدر مني:

- "أكيد لما أشوفه بعد ما أعرف المكتوب في البَرْديَّة هيفيدني في مقابلته".

فرَدَّت متفهمةً وببطء شديد:

- "مفيش مشكلة"...

ثم أكملت مسرعة:

- "أنا أعرف البروفيسور "صبحي" كويس، إيه علاقته بالقضية؟

- كان بيشتغل مع القتيل في الجامعة، وبيساعده في أبحاثه، فأكيد هيفيدني بمعلومة أو اتنين".

فرَدَّت مُتفهِّمة:

- "خلاص هاجيلك قبلها بساعة.

- تمام، أشوفك على الساعة خمسة".

أغلقت الهاتف وأنا أشعر بالسعادة فاليوم سوف أراها وأتحدث معها يا لفرحتي! سأذهب إلى البيت الآن فالوقت يداهمني ويجب عليَّ الاستعداد جيدًا.

رَنَّ الهاتف مرة أخرى فابتسمت ظنًّا مني بأنها هي، وما إن نظرت إلى اسم المتصل حتى أدركت الواقع، فالمتصل لم يكن هي، بل كانت طليقتي.

****

في تمام الخامسة وعلى موعدي مع نادية جلست في المقهى أرتشف القهوة، وأتأمل الزائرين مُحاولًا رؤيتها من بعيد، تذكرت مكالمة طليقتي، فلم نتحدث منذ زمن، كانت تخبرني بأنها ستكمل حياتها مع رجل آخر فقد مرت سنتان على فراقنا.

تعجبت من مكالمتها، لماذا تخبرني بذلك، وهل تهمني في شيء، هل إعجابي بنادية هو ما شجعني على تهنئتها والشعور بالسعادة، فالآن من حقي النظر لحياتي الشخصية.

لم أتخيل زواجها بشخص آخر، رغم أن هذا أمر طبيعي فهي لم تكن كبيرة في السن. ولكن الحدث رغم كل شيء أزعجني.

لمحت نادية تأتي من بعيد بردائها الأسود القصير، ذي الحمَّالات السميكة ينسدل على كتفيها، ليصل إلى وسط أرجلها، والعقد اللامع حول عنقها، يتلألأ مع انعكاس أشعَّة الغروب عليه، فتصبح كالطائر يرفرف بجناحيه، ينتشل قلبي إلى أعلى درجات السعادة.

وقفت أنظر إليها، وأنا مفتون بها، إلى أن اقتربت مني، مدت يديها، ألقت التحية، مددت يدي وأنا أقول مبهورًا:

- "أحب أحيِّيكي على ذوقك الرقيق في اختيار اللبس، الفستان هياكل مِنِّك حتَّة".

ابتسمت والخجل على وجهها وقالت شاكرةً:

- "شكرًا على المجاملة الرقيقة.

جلست أمامي ثم أكملت بابتسامة عريضة أظهرت أسنانها اللامعة:

- "مكنتش عارفة أن الظباط بيعرفوا يجاملوا المجاملات دي... كل إللي أعرفه عنهم، شغل وزعيق طول الوقت".

فرَدَّدت عليها مُقهقهًا:

- "زي الفراعنة بالظبط، معرفش أنهم بيحبوا، وأنتي متعرفيش أن الظباط بيعرفوا يجاملوا".

ضحكنا للحظات قبل أن يسود الصمت مدة غير قصيرة، فبدأت الحديث بسلاسة منقطعة النظير:

- "أنا ترجمت ورق البردي".

التفتُّ إليها مُحاولًا الخروج من حالة الافتتان، إلى التركيز في عملي، فرَدَّدت سريعًا:

- "إنتي قولتي إنك اكتشفتي حاجة مهمة، يا ترى إيه هي"؟

ساد الهدوء المكان مما ساعدنا على العودة لطبيعتنا سريعًا، فتحدثت قائلة:

- "مش عارفة هيفيدك ولَّا لأ... في الأول أنا اتأكدت من الأختام، وأن هي برديات أصلية مش مزورة، بعد كدة بدأت أترجم الرسايل، كانت من الملك "رمسيس الثاني" لحبيبته "نفرتاري" وده عادي... بس في رسالة هي بعتتها.

توقفت عن الكلام، مدت يدها في حقيبتها، أخرجت نسخة من البَرْديَّة المترجمة، وأعطتها لي، فأخذتها بتمهل، وأنا أستمع إليها بعد أن بدت نبرة قلق على صوتها:

- الرسالة دي من "نفرتاري" إلى الملك "رمسيس الثاني" بتقول له ميبعتش رسايل تانية ويبطَّل يفكر فيها... هسيبك تكِّمِل القراية هتفهم أكتر.

بدأت في قراءته بصوت مرتفع:

- "يا ملك البلاد، إن مرضي يمنعني عن أن أكون جوارك، فسأموت مع مرور الوقت، وما فعلته بحق الإلهة لا يُغتفر، فأرجوك أن تغفر لجريمتي، وتدفن سري في أعماق الأرض، حتى لا يجدها أحد".

انتهت الرسالة، نظرت إليها وقلت بتمهل:

- "بس معلوماتي، أنهم اتجوزوا، وهي كانت ملكة مصر".

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت مؤكدة:

- "صحيح، وده شد انتباهي، لو الرسايل دي سليمة، هتكون دليل أن في سر ورا جوازهم".

قاطعتها متسائلًا:

- "مش قولتي إنك متأكدة من أنها أصلية، طب ليه بتشكِّكي تاني؟!

فَرَدَّت موضحةً وجهة نظرها:

- "البرديات قديمة، والرسايل من الملك أصلية، وهو كاتبها، بس الرسايل من الملكة ممكن تكون مزورة، أو مش هي كاتبها، أصل ساعتها ماكنتش ملكة، فالرسالة مش مختومة".

أومأت برأسي متفهمًا وقلت:

- "تفتكري الرسايل دي وقعت في أيد القتيل بشكل أو تاني"؟

ظهرت عليها ملامح التفكير وهي تقول:

- "محتمل، بس الموضوع مش بس كدة... أنا افتكرت أن حقيقة مرضها بتحاول تخبيه، بس في رسايل تانية كانت بتتكلم عن شيء مادي هو ده إللي عايزاه يخفيه.

- ممكن حد يكون قتله عشان مايكشفش الكلام ده"؟

نظرت إليَّ وقد بَدَا على ملامحها عدم الاقتناع، فرَدَّت ببطء:

- "جايز يكون حد وصل للحاجة المادية، واتقتل بسببها، في ناس كتير مستعدَّة تدفع فلوس عشان تاخد الحاجة المادية دي".

جلست أراجع كل ما قالته، بدأت أربط الأحداث ببعضها وأنا أقول:

- "محدش هيجاوب غير البروفسيور "صبحي"، إيه رأيك تحضري معايا الاجتماع ده.... هو زمانه على وصول".

فأشرق وجهها وهي تقول:

- "ده شرف لي، الدكتور صبحي ده أستاذنا وساعدني في أبحاث كتير.

لَمْ تَمْضِ لحظات إلى أن جاء البروفيسور صبحي، كان يبدو هزيلًا متهالكًا، تخطى منتصف السبعينات، يرتدي بدلة فضفاضة بألوان بُنية؛ مما يوحي بعدم اتباعه للذوق، العام السائد الآن، ظهرت عليه ملامح القلق والارتياب؛ خاصةً بعد أن رأى نادية، وهو يعلم أنها خبيرة في التاريخ الفرعوني.

صافحته مُعرِّفًا بنفسي:

- "الظابط أحمد علي. من قسم الجنيات وماسك قضية مقتل البروفيسور مارك... أظن إنك تعرفه".

أجاب بإيماءة خفيفة وسلم عليَّ بيد مرتعشة. وما إن جلس حتى قال بأسى:

- "أنا سمعت الخبر ده النهاردة الصبح، قبل ما الظابط هيثم يكلمني".

ناديت على النادل ثم سألت الدكتور:

- "تحب تشرب ليمون؟، إحنا هندردش شوية".

فرَدَّ بأدب وهو ينظر للنادل:

- واحد ليمون سكر خفيف".

تركنا النادل وذهب. بدأت بسؤاله:

- "ممكن تحكيلي عن طبيعة العلاقة بينك وبين البروفيسور مارك"؟

اعتدل في جلسته، وبحركة لا إراديَّة عبث في نظارته الطبية قبل أن يجيب:

- "أنا معرفوش شخصيًّا، كان في بعض الأبحاث المشتركة، غير كدة معرفش عنه حاجة.

طريقته المنمَّقة والراتبة في الحديث أثارت من شكوكي، أحسست بأنه يخفي شيئًا، حاولت مجاراته بسؤالي:

- "يا ترى إيه نوع البحث إللي كنتوا شغالين عليه"؟

بدأ يتصبب عرقًا وقال مترددًا:

- "كنت أنا والقتيل بنعمل دراسة على حياة الملكة "نفرتاري"، نتأكد من حقائق عن أصولها عشان كمية الإشاعات من العلماء، بيشكِّكُوا في أنها من أصول ملكية..".

قاطعته نادية وبَدَا على وجهها الاعتراض وهي تقول:

- "أنت عارف يا دكتور أنها حقائق مزيفة، لا يمكن للملك "رمسيس الثاني " تدنيس الدم الملكي حتى لو كان يحبها.

فرَدَّ عليها الدكتور صبحي بأدب موافقًا رأيها:
- "عارف يا بنتي، وده شجعني على العمل معاه عشان نوصل لدليل قاطع، ونوقف الإساءة للملوك... بس وإحنا في النص، وقعت أيدينا على بعض الرسايل".
قاطعته وأنا أريه إيَّاها:
- "زي دي"؟
قرأها في عُجالة، زاد التوتر عليه، وجهت كلامي إليه بكل حزم وقلت محذرًا:
- "لازم الصراحة يا دكتور... عشان نعتبرك شاهد معانا"...
وضعت يدي على كتفه، أمسكتها بقوة ملحوظة، ثم أكملت حديثي بصوت جهوري:
- "ولَّا تحب نعتبرك متستر على الحقايق، ونتهمك بتعطيل سير العدالة"؟
أومأ برأسه إيجابًا وهو يمسح عرقه، ثم قال مرتعشًا:
- "زي ما في الرسالة في حاجة مادية حاولنا ندوَّر عليها، موصلناش لحاجة، وصلنا لبرديات أكتر بتقول إن ده عمل سحري من أعمال الفراعنة".
بدا الإنهاك على صوته فرأيت نادية تمد يديها وتعطيه عصير الليمون ليشربه ليُهدِّئ من توتره، شكرها ثم أكمل مسترجعًا الأحداث:

- "حاولت معاه كتير نوصل للمكان بس كنا بنخُشّ من لغز للغز... في الآخر سِبْتُه ونصحته ميكمِّلش عشان الطريق ملوش نهاية. رفض وكمِّل لوحده".

توقف للحظات قبل أن يكمل بنبرة بريئة:

- "الكلام ده كان من شهرين وبعد كدة مشفتوش تاني".

حاولت التأكد من أنه أعطانا كل ما يعرفه، نظرت له بجِدِّية، سألته متشككًا:

- "في حاجة تانية مخبِّيها"؟

نفى تمامًا مؤكِّدًا أنَّه قد قال كل ما يعرفه.

شكرته على التعاون الذي تم بيننا اليوم، تركت له رقم هاتفي، إذا تذكر أمرًا أو أراد أن يقول شيئًا آخر، شكرني، واستأذن في الانصراف، جلست أنا و"نادية" نفكر في صمت، رَنَّ هاتفي، أجبت وقد كان ما سمعته غريبًا، إن لم يكن الأغرب على الإطلاق.

نظرت إلى نادية وقلت مشوقًا:

- "شكلنا هنتقابل كتير... في واحد في المستشفى من الصبح، عَمَّال يقول كلام غريب".

استمتعت بنظرة الشغف في عينيها وأكملت:

- "بيقولوا إنَّه بيتكلم هيروغليفي"... فأخذتها الصاعقة.

****

الفصل الثاني

«هذا العالَم لا يستحقُّ أن نعرفه».

إميل سيوران

دقت الساعة السابعة، وترددت أصداؤها في أنحاء الجامعة بصوتها الرنان، رحت أعدو لاهثًا بين الأروقة، فجسدي البدين لا يحتمل الركض أو حتى السير مُسرعًا، رأيت قاعة المحاضرات وحين اقتربت بدأت في السير ببطء، ارتكزت على الحائط ألتقط أنفاسي، زرَّرت سُترتي، نظرت لساعتي، رفعت رأسي مُبتسمًا، ثم دخلت القاعة.

سَرَتْ همهمات بين الطلاب، وأخذوا في الجلوس في أماكنهم ما إن رأوني، وانخفضت عدة رؤُوس يجلسون في الصفوف الأماميَّة، على أهبة الاستعداد لتدوين الملحظات.

وكما هو حال أساتذة الجامعة الشباب جميعهم، فإن الراتب وحده لا يكفي، فلا ضرر من إعطاء بعض المحاضرات لطلبة الجامعات الخاصة، تساعدني في أقساط السيَّارة أو في تجديد منزلي.

أدرت بصري في المكان، أُحصي عدد الطلاب، فكم يسعدني أن أرى نسبة الحضور كبيرة، اتجهت إلى السبورة المعلَّقة على الحائط، وكتبت اسمي "الدكتور زياد" ووضعت عنوان المحاضرة في الوسط "العقل البشري"، ثم استدرت نحوهم، وبصوت جهوريّ بدأت الكلام:

- "في القرن الأخير قدِر الإنْسَان يوصل الفضاء، سخَّرنا الآلات في خدمة البشر، غصنا في أعماق البحار، واكتشفنا أشياء منتخيِّلش وجودها، كل ده نتيجة العقل البشري والتفكير المنمَّق".

توقف لبُرهة ثم طرحت سؤالًا تشويقيًّا:

- "الإنْسَان بيستخدم كام في المِيَّة من قدرة العقل"؟!

بدت الراحة على وجه أحد الشباب وهو يجيب واثقًا:

- "أكيد إحنا بنستخدم عقلنا كله".

سرت ضحكات خافتة بين الحضور فابتسم، وأجبت مُسرعًا:

- "عشرة في الميَّة بس، دي النسبة إللي بنستخدمها...

لفتت عبارتي كل الحضور وقد بَدَا التعجب على البعض فأكملت:

- "تخيَّلوا معايا لو استخدمنا عشرين في الميَّة ولَّا تلاتين... إيه هيحصل للعالم! الأمراض هتختفي، محدش هيجوع الجوع، التكنولوجيا هتكون شريكة حياتنا. عشان كدة لازم ندرس العقل كويس، ونطوره إلى أبعد الحدود... هو ده السَّبق الحقيقي".

وهكذا تطرقنا إلى بعض العلوم المرتبطة بدراسة العقل ومدى التطور العلمي، إلى أن شارفت المحاضرة على الانتهاء. رَنَّ الجرس وهَمَّ الحضور بالانصراف على أمل في محاضرة أخرى لشرح المزيد.

ذهبت لتناول الإفطار فمعدتي الثمينة لا تقدر على احتمال الجوع أكثر من ذلك، أخذت الطعام وجلست أتناوله، ولمحت أحد الأشخاص يتوجه إليَّ، كان شابًّا في أوائل الأربعين، أسود الشعر، قوي البنية، ملابسه الكاجوال ذات الذوق الرفيع توحي لك بأنه لم يكن طالبًا لديه بعض الأسئلة، ابتسم في وجهي وسألني:

- "الدكتور زياد"؟

ابتلعت ما في فمي من طعام وأنا أجيب:

- "أيوة، مين حضرتك؟

- أنا الظابط أحمد شريف من قسم الجنايات".

سرى التوتر في جسدي، فأنا لم أدخل أقسام الشُّرْطَة من قبل، ولو لعمل محضر، فقد كنت أتحاشى الذَّهاب هناك، وانتقلت رجفة صوتي إلى يدي وأنا أهمُّ بالنهوض مُسلِّمًا عليه:

- "أهلًا وسهلًا".

مد الضابط أحمد يده، رسم ابتسامة على وجهه، وطبطب على كتفي حتى يُشعرني بالأمان ودعاني للجلوس، لم أنطق بكلمة واحدة من هول المفاجأة.

لم يطُلْ صمته، فبدأ الحديث قائلًا:

- "بيقولوا إنك بتحب شغلك، على طول في معمل الجامعة".

فأومأت إيجابًا وأنا لا أفهم شيئًا على الإطلاق، رددت عليه بصوت مبحوح، يشوبه كثير من الاستفهامات:

- "أصل شغلي كله نتايج واختبارات، عشان كدة كتير من الوقت بسهر في المعمل".

كان ينظر إليَّ والابتسامة لا تزال على وجهه، أكمل كلامه بنبرة عملية:

- "التقارير عنك بتقول، إنك دكتور شاطر، منضبط، وكمان بارع في تخصصك، قدرات العقل البشري".

لم يأتِ بذهني كيف أتى بهذا الكلام، فلم أكن أتخيَّل أن تكون التقارير التي كُتبت بها هذا الكَمِّ من المديح، بل لم أكن أعرف بوجود تقارير تُكتب عني؛ لمح حالة الاستغراب على وجهي؛ لذا أكمل حديثه بجِدِّية:

- "أنت عارف أن تخصصك ده مميز ومفيش كتير فيه، والشاطر فيه لازم نكون متابعينه". إحنا اخترناك عشان تساعدنا في قضيَّة جديدة".

استأذنته في شرب كوب من الماء حتى أستطيع تمالُك أعصابي وأنا أقول بحُة في صوتي:

- "قضيَّة"؟

فرَدَّ مُتجاهلًا استفهامي:

- "تعرف إيه عن التنويم المغناطيسي"؟

لم أصدق ما أسمعه!!! فما يسألني عنه لا يحتاج لشخص مثلي، فبضغطة زِرّ على الحاسب يكون متصلًا بالإنترنت، وسيمدُّه بكل ما هو متاح في هذا العلم؛ ولكنني وجدت نفسي أجيبه قائلًا:

- "التنويم المغناطيسي هو أن الذهن بيكون في حالة من التركيز والاسترخاء والعقل الباطن مفتوحًا يستوعب الإيحاءات".

ابتسم أحمد وهو يسألني:

- "طب احكيلي أكتر، إزاي ممكن أخلِّي واحد ينام"؟

قلت متشكِّكًا فيما يريد:

- "التنويم عبارة عن ثلاث مراحل؛ وهي الإعداد النفسي، الإيحاء، والتوجيه لعمل معين".

قاطعني مُسرعًا:

- "وطبعًا لازم إرادة الشخص نفسه إرادة كاملة"؟

أحنقتني مقاطعته، ولكني أجبت بنفاد صبر:

- "أكيد، مينفعش تنويم حد من غير إرادته".

توقف للحظات، كأنه يفكر في شيء، ثم سألني:

- "وإيه هي المسافة الممكنة بين الشخص المنوَّم والدكتور؟

- المرحلة الأولى وهي الإعداد النفسي لازم القرب جدًّا، عشان هي بتِّمّ عن طريق إجهاد العين، إجهاد العقل بالعد المتسلسل، أو فَقْد

الاتزان مثل كرسي الاهتزاز، وفيه طرق تانية كتير بس كلها لازم تكون قريبة من الشخص.

- يعني لازم الاتنين يكونوا في نفس الأوضة على الأقل.

- أكيد".

أكمل حديثه والابتسامة على وجهه قائلًا:

- "شكلك كدة هتشوف أغرب حالة تنويم مغناطيسي في حياتك".

وتركني في حالة من الذهول، لم أفهم منها شيئًا، مما جعلني أتساءل ماذا وراء هذا الضابط؟.

****

- "إنتي مريم"؟

هكذا قالها حين رآني، كان يشبه ما رأيته في الصورة، بوسامته المعهودة، وقامته الممشوقة.ابتسمت له وأنا أمد يدي مصافحةً:

- "إزيَّك يا حسام. شكلك مش متغير عن الصورة".

لم أعرف أن هذا اللقاء لم يكن إلا البداية، فبعدها بقليل رأيته أمامي في الجامعة، صُدمت لرؤيته، جلسنا في المقهى، خرجت بعدها فرحةً أكاد أطير من سعادتي، بدأت أشتاق لرؤيته، أسأله عن أحواله، نتهاتف في التليفون لساعات.

أعجبني وقوفه جانبي، إيمانه بأهمية التعليم، وكانت سعادتي، وافقني على إنهاء الدِّراسة بنجاح كوني متفوقة، عشقت تحمله لانشغالي عنه أيام الامتحانات ولن أنْسَى أبدًا كلماته الضاحكة:

- "الامتحانات دي لما تخلص هكسر وراها قُلَّة".

أوقفني الضابط مؤمن عن الكلام، وقال في ملل:

- "إحنا مش هنحب هنا".. هاتي من الآخر، إيه آخرة الحب ده"؟

ابتلعت ريقي محاولة التماسك، وأنا أكمل قصتي.

- "نعم إنها لقصة حب، هذه هي النهاية، وها هو اليوم الموعود يوم انتظرته أُمِّي، لم يجُلْ بخاطري أنَّه سيأتي، ولكنه فعلها، وجاء لطلب يدي بعد الجامعة، ما زلت أتذكَّر مدى تأنُّقه عندما جاء إلى بيتنا، رأيت الفرحة في عينيه، شعرت بأنه سيحميني ويكون سندي في الحياة، وهَا أَنا أُفيق من غفوتي على صوت أمي والسعادة تخرج من صوتها:

- "ربنا يتمم بخير، سمَّعونا زغروطة نفرَّح بيها الناس".

فانهالت الزغاريد من أقاربي معلنةً بداية عهد جديد، عهد كان أجمل مما حلمت، عشت معه أجمل أيام حياتي، ضحكنا معًا، سهرنا كثيرًا، لم تكن حياتنا مُملَّة، بل تمضي بوتيرة سريعة. إلى أن جاءني ورأيت الوجوم على وجهه، فانتابتني القُشَعْريرَة.

****

لم يُمهلني الضابط الوقت للتفكير، أو حتى أخذ رأيي للموافقة أم لا، فوجدت نفسي أغادر الجامعة معه، نستقلُّ سيارته إلى مكان لم يُعلمني به، مما استفز مشاعري وجعلني أسأله وقد بَدَا الغضب على وجهي:

- "أنا عايز أفهم إيه إللي بيحصل؟ وبعد كدة أقرر أروح معاك ولّا لأ".

نظر إليَّ والابتسامة تملأ وجهه، غير عابئ بحالة الجنون التي وصلت إليها، وكأنه يستمتع بهذا الشعور ... ولكنه سرعان ما تبدَّل وجهه وقال مُحاولًا تهدئتي:

- "إمبارح كان في واحد عايز يرمي نفسه من سطح البنك إللي شغال فيه، والحمد لله وصلنا في الوقت المناسب ومسكناه قبل ما يموت".

توقف للحظات وكأنه يُمهلني بعض الوقت لفهم ما سوف يقوله، وبنبرة غير متفائلة قال:

- "بعد كدة، سلوكه اتغيَّر، بدأ يتكلم كلام غريب، شاكّين أنه هيروغليفي... هو في المستشفى حالته كويسة بس مش فاكر حاجة عن الكلام ده ولا حتى محاولة الانتحار".

أصابتني جرعة كبيرة من الإحباط، وبدأت في الاعتراض قائلًا:

- "وأنتوا عايزين مني أخلِّيه ينام مغناطيسي وتفهموا منه إيه إللي حصل، آسف يا حضرة الظابط، ده مش شغلي، دي إهانة".

في تلك اللحظة كنا نعبر بوابة المشفى، لم يبالِ باعتراضي وأكمل حديثه كأني لم أقُلْ شيئًا:

- "وصلنا المستشفى، هتملَى شوية أوراق روتينية، وهنروح للمريض مع بعض.

- بس أنا مش رايح"...

فرَدَّ عليَّ مقاطعًا كلامي بحزم وبصوت لا أعرف كيف خرج من حنجرته:

- "إحنا حاولنا تنويمه بس معرفناش، أكبر دكاترة تنويم معرفوش يا دكتور.

وكانت هذه أكبر مفاجآتي في هذا اليوم المليء بالمفاجآت، بدا الشرود على وجهي وأنا أسأله:

- "إزاي معرفتوش"؟!

وبغضب شديد قال:

- "عشان كدة اخترناك... عايزينك تعرف ليه".

أنهينا الأوراق الروتينيَّة، الأسئلة تتدفق إلى عقلي... كيف لم يستطع الأطباء تنويمه؟! ولماذا لا يتذكر شيئًا؟ ما الذي سأفعله؟ لوهلة أحسست بالفضول، تدفق الحماس في جسدي، تبعته في عجلة، وهو يقودني من مبنى إلى آخر، ومن دور إلى الثاني، ثم توقفنا أمام باب

الغُرْفَة، وبطريقة استعراضيَّة أمسك الباب وهو يدعوني إلى الدخول، وقال مُبتسمًا:

- "أهلًا في غُرْفَة المفاجآت".

رأيت جهاز رسم المخ يعمل جانب سرير حديث، يغلب على الغُرْفَة اللون الأبيض محاطًا بستائر زرقاء لامعة، لمحت المريض وهو يحرك أنامله بصعوبة بين الأسلاك، فتح عينه في بطء، ثم تأوَّه فطرقات الصداع تدوِّي في رأسه، أكاد أشعر بها. ثم راح في نوم عميق مرة أخرى.

استمعت إلى الضابط أحمد وهو يقول لي:

- "محمد رفعت شغَّال في بنك، اتحرِّينا عنه، كل الناس بتقول إنَّه يحب الحياة ومتفائل، غريبة أنَّه يفكر في الانتحار.

بدأت حيرتي تزداد وأنا أسأله:

- "طب هو ليه حاول ينتحر"؟

نظر أحمد لوجهي، ثم أعطاني ملفًّا كبيرًا وهو يقول:

- "وده دورك، عايزين نعرف إيه إللي حصل؟! في حد أجبره عن طريق التنويم؟! ليه مش فاكر حاجة؟... يلَّا يا بطل الملف معاك ورِّينا هِمِّتك".

ثم أكمل كلامه مُنهيًا اللقاء:

- "هسيبك شوية وأرجعلك، الفريق الطبي تحت أيدك، عندهم تعليمات بكدة، سلام".

تخوَّفت من تركه لي في هذا المكان، وأنا لا أعرف شيئًا، أدرك ما أشعر به، رَبَّت على كتفي مداعباً ثم غادر الغُرْفَة مُلوِّحًا بيديه، وبنبرة تشجيعيَّة:

- "أشوفك بالليل، فكر في الأسئلة، إجابتها هي كل المفتاح".

أغلق الباب خلفه، تركني وحيدًا رغم وجود كثير من الممرضين والأطباء الذين يعملون حولي... فإنني شعرت أني وحيد.

****

أعتقد بأني أصبت هدفي، فبعد الاطِّلاع على ملف الدكتور زياد، ورؤيتي له أدركت أنَّه يتميز بالذكاء، طرحه للأسئلة في سيارتي، جعلني متأكدًا من أنَّه كان يريد ترتيب أفكاره قبل الذهاب؛ حتى يعلم ماذا ينتظره، وأخيرًا عدم إبدائه أي ملحظات، أو تكوين فكرة سريعة فور رؤيته للمريض، طمأنني، فهو غير متسرع، كل هذه الصفات جعلتني أتركه، فهو لن يبدع أو يأتي بالجديد إلا إذا أحس أنَّه بكامل حريته.

أجريت اتصالًا بمكتبي، فأكَّدوا لي أن ما كان ينطق به الرجل من لغة، هي اللغة "الهيروغلفيَّة"، لا أعرف لماذا شعرت بالفرحة عند معرفتي بذلك، أيكون لأنني رأيتها حُجَّة مناسبة للسؤال على نادية... كم أشتاق إليها!... كم أريد رؤيتها، خاصةً بعد أن تحررتُ كاملًا من طليقتي، فبعد محادثتنا الأخيرة، وبَوْحها بأنها ستبدأ حياتها من جديد، أراحني.

لا أنكر أني أحببتها، ولكن الأيام أقوى من الحب، تُنسيك ما لا تخيله، فتبقى بعض الذكريات تتشبث بها، حتى تُمَحى من ذاكرتنا واحدة تلو الأخرى.

أمسكت هاتفي، أجريت الاتصال، لم أتمالك نفسي من شدَّة الاشتياق إليها، مما عجَّل بتدفُّق الأدرينالين في دمي، انتظرت كثيرًا، لا أحد يجيب الهاتف، نبضات قلبي تتسارع، سأحاول مرة أخرى لعلَّها لم تسمع الهاتف... سأغلق الهاتف الآن لن أنتظر أكثر من ذلك، وقبل أن أغلق سمعت صوتها وهي تقول:

- "ألو"!

امتزجت مشاعري بين الفرحة والتوتر، بين الشوق والانتظار، ظهرت كل هذه المعاني في صوتي فبدَا غريبًا وأنا أقول:

- "ألو، آنسَة نادية إزيِّك"؟

ردت مداعبةً:

- "إزيَّك؟ كنت مستنِّياك تكلمني من بعد آخر مرة عشان حكاية الراجل إللي بيتكلم هيروغليفي ده".

ضحكت وأنا أقول:

- "معلش، اتأخرت شوية بس إحنا لسة متأكدين حالًا أنَّه هيروغليفي".

فرَدَّت بحماس وبَدَا الفخر على صوتها:

- "وطبعًا عايزني أترجملك الكلام".

أعجبني ذكاؤها، وتلقِّيها للحياة بمرح، فقلت مُبتسمًا:

- "وده شرف لينا كبير أنك تساعدينا".

وبنبرة نشاط قالت:

- "هشوفك إمتى"؟

أصابتني المفاجأة... فلم أكن أتخيل سؤالها، لم يخطر ببالي إمكانية رؤيتها، ويا لها من مصادفة، أحقًّا سأراها... فرَدَّدت عليها قائلًا:

- "أنا رايح المكتب، تحبي نتقابل هناك؟

- مفيش مشكلة ساعتين وأكون عندك".

تهللت أساريري وأنا أقول فرحًا.

- "مستنِّيكي".

أغلقت الهاتف، زدت من سرعة السيَّارة وأنا أستمع لأم كلثوم تغني "والهوى أه منه الهوى أه منه الهوى".

****

- "يا نادية، أنا تعبت من العلاج. إمتى هنخلص"؟
- هانت يا ماما".

لم تكن تلك المرَّة الأولى التي أذهب بأُمِّي إلى المشفى، فمنذ أن علمت بأنها خائفة لأن صدرها متورم، والورم ظهر منذ شهور، ولم تخبر أحدًا، حاولت أن تعالج الأمر بنفسها، جربت كل شيء، دهنت صدرها بالعجين، وضعت عليه لبخة وضمَّدته بالماء والسكر، حتى حبوب منع الحمل أخذتها أُمِّي بعد نصيحة من جارة، وقد عرفت بمحض الصُّدْفة.

توسلت إليها للذهاب للطبيب، وبعد عناء ورجاء طويل ذهبنا، وها نحن الآن نسير على العلاج الكيميائي أملًا في الشفاء.

جلست أنتظرها بالخارج حتى تنتهي من الجلسة، فإذا بهاتفي يرن، أحقًّا هو المتصل! لا أصدق عيني، بدأت أشعر بنسيانه، أو هذا ما أقنع به نفسي، لماذا الآن ؟! أيوجد جديد في القضية؟! أم أنَّه يريد الاطمئنان عليَّ! دعكِ من هذه الحماقات، فهو لا يشعر بكِ؟ وكيف يشعر بي، ونحن لم نتقابل سوى مرتين، أغلق الهاتف.

يا لحماقتي، كيف فعلت ذلك؟! لماذا لم أُجِب؟ ماذا سيقول عني الآن، لا بُدَّ من الاتصال به.

رَنَّ الهاتف مرة أخرى، هيَّاا ماذا تفعلين؟!! هذه فرصتك الأخيرة، أمسكت بالهاتف، كم انتظرت هذه المكالمة، فصوته الناعم يلفت انتباهي، يجعلني أغرق في الأحلام، أحلام أتمنَّاها حقيقةً، لا أعرف كيف يحدث لي هذا.

سأراه اليوم، في الساعة الرابعة، سأذهب إلى المنزل سريعًا، تُرى ماذا أرتدي؟ هل أرتدي ملابس عملية وألوانًا دكْناء كالمرة السابقة، أم سيشعر بأني محبة للاكتئاب، أم أرتدي هذا الزي الفاتح الواسع، ولكني سأقابله في مكتبه، لن يكون مناسباً، لا يوجد لديَّ ما أرتديه، يجب عليَّ شراء ملابس جديدة، ماذا سأفعل الآن.

****

ملأ دخان السجائر الغُرْفَة، فالضابط كان يشعل السيجارة تلو الأخرى، وهو يقاطع قصتي ليستفسر عن شيء أو لتدوين ملحوظة.

قام من جلسته وهو يعبث في هاتفه وقال لي:

- "يعني في الآخر اتجوزتوا بعض".

ثم أكمل كلامه في محاولة لطمأنتي:

- "لحد دلوقتي أنا مصدقك، عايزك تكمِّلي كدة".

ثم نظر إليَّ وانقلبت نظرته تمامًا، قال بصرامة:

- "لو حسّيت بالكدب، مش هيحصل كويس".

ثم قال مُذكّرًا:

- "متنسيش إنك إنتي جيتي هنا لوحدك، محدش أجبرك، لو عايزاني أصدق قصتك لازم أقتنع بكلامك وأصدقه... أظن أنا واضح وصريح، والمعاملة معاكي خمس نجوم".

فقلت له وقد بَدَا شعور بالارتياب يسري في جسدي:

- "متقلقش يا حضرة الظابط... أنا بحكيلك كل حاجة".

استكملت قصتي وهَا أَنا أكمل حديثي له، لن أنْسَى أبدًا عندما جاءني حسام، ورأيت في عينه رجاءً، وهو يقول لي متمنياً:

- "نفسي نجيب ابن يملَا حياتنا".

توقعت هذه المحادثة منذ زمن، بل وانتظرتها، وكنت مستعدَّة لإجابته، "ليس الآن فقد عاهدتني على الوقوف بجانبي حتى أنجح في عملي، وأنا الآن في قمة الانشغال". ولكني لم أَقُلْ ذلك بل لُذْت بالسكوت.

رأيت التوسُّل في عينيه، وعلى وجهه شعرت بالتمّنِي. ذرفت دموعي ثم نظرت إليه، وقلت وأنا أرسم البسمة على وجهي:

- "موافقة".

لم يصدق، ظل للحظاتٍ في جلسته غير مستوعب موافقتي، لم يعرف ماذا يفعل هل يقفز فرحًا!! أم يشكرني!، ثم أخذني في حضنه، أمسكني بقوة من وسطي، وأخذ بالدوران بي، مثلما فعل يوم عُرْسنا، قهقهت من الضحك ومسحت دموعي وقلت مداعبة:

- "للدرجة دي كان نفسك في طفل"!

مرت تسعة أشهر على حديثنا وجاء اليوم الذي صرخت فيه من شدة الألم، صرخت بصوتٍ عالٍ:

- "حسام أنا بَوْلِد".

رأيته يخرج من بين فخذيَّ!! بكاؤه يُطرب أُذُنيَّ! لمسته يقشعرُّ لها بدني! حركاته ملأت كل وجداني، فتساءَلت غير مصدقة، أهذه النفس خرجت من بين أنفاسي، أهذا هو طفلي؟!!

لحظة خروجه للدنيا لم تكن فقط لحظة سعادة، بل مزيج من الصدمة والفرحة، مزيج من الإرهاق الشديد والراحة الممتعة.

تصلَّبت الكلمات في حلقي، وهم يعطونني طفلي حتى أحمله، أمسكته، وقد قفز زوجي جانبي، وقال في سعادة:

- "حمد لله على سلامتك، الولد طالع قمر زيّ مامته".

ابتسمت وأنا لم أكن في كامل وعيي قط، نظرت إليه نظرة عرفت معها مستقبلي، فحياته أصبحت حياتي، ولا أعرف كيف ومتى أحببته بتلك القوة؟. لقد أحببته أكثر من أي شيء.

من الحسنات الوحيدة للوحدة أنها تجعلك متحررًا من كل الالتزامات، لا زوجة تنتظرك وتعاتبك على شراهتك في الأكل، لا أطفال تشغل بالك بهم، أو سخافات مرتبطة بضرورات النفاق الاجتماعي، لا شيء يشغلني عن عملي سوى عملي.

مرت أكثر من سبع ساعات، تناولت فيها من المأكولات ما طاب ولذَّ، حتى امتلأت معدتي فأوامر الضابط أحمد توفير كل ما أحتاجه لعملي.

جلست أطالع التقارير والفحوصات على المريض، كان هناك شيء غير مفهوم، فجميع الفحوصات تشير إلى خُلوِّ جسمه من الأمراض، باستثناء بعض الأشياء الطبيعيَّة مثل ارتفاع ضغط الدم، عدم عمل الكبد بكفاءة، كل هذا لا يُقلقني؛ فعامل السن، وسوء عادات التغذية، عادةً ما تؤدي إلى ذلك.

لكن ما لفت انتباهي هو رسم المخ، فهو يشير إلى تردُّدات أعلى من الطبيعي، بل أعلى مما رأيته من قبل، في البدء أعتقد أن التنويم المغناطيسي الَّذي حدث له هو السبب، ولكن هذا أيضًا غير مقنع، فعلميًّا، لا نتأثر الموجات الترددية بهذا.

وإن حدث لن يصل إلى هذا الكَمّ من الترددات... هناك شيء لا أفهمه، شيء غير طبيعي يحدث، بدأت مرة أخرى في مقارنة نتائج رسم المخ.

رَنَّ هاتفي المحمول، شعرت بالطمأنينة عندما رأيت نمرة الضابط أحمد، رددت عليه متلهفًا:

- "ألو، إزيَّك يا حضرة الظابط؟

- دكتور زياد أخبارك إيه؟، سمعت أنك خلَّصت على مطعم المستشفى".

قلت ساخرًا:

- "بس يا خسارة معندهمش محش"ي!

فانفجر ضاحكًا هو الآخر ثم أكمل:

- "أخبار التقارير والأبحاث إللي شغَّال عليها إيه"؟

تعجبت من متابعته لكل شيء، فأدركت أن هذا هو عمله، وقد أعجبني فيه إخلاصه وتفانيه في أدائه. فقلت متأنيًا:

- "عندي شوية أفكار بحاول أربطها مع بعض.

- هايل، أنا هتأخر عليك شوية، لو حابب تنام في غُرْفَة مجهزة بالكامل ليك".

ابتسمت، وقد جال بخاطري مدى فقر القطاع الجامعي، فكثير من الأحيان كنت أدفع من جيبي الخاص لإنهاء بعض الأعمال. فشكرته على ذلك وأكدت له انتظاري حتى يأتي. مُنهيًا حديثنا.

كنت أعرف أن فضولي سيتغلب على مخاوفي؛ لذلك لم أستغرب أن تقودني تلك التقارير عن الترددات إلى نتيجة، ولكني حتى الآن لم أجدها.

تتبَّعت الترددات مرة أخرى، بعض الترددات تأتي وتذهب بلا انتظام، ففصلت الترددات الطبيعيَّة الآتية من الجسم مثل أنشطة الجسم كالاسترخاء، والتركيز والاستماع، فهذه الأنشطة تصاحبها موجات بترددات معينة يجب عليَّ إزالتها، حتى تتضح لي الرؤية أكثر.

كل ما أراه الآن هي ترددات غير منطقيَّة، لا يجب أن تظهر. ظللت أدقِّق النظر في هذه الترددات، لفت انتباهي تردد صغير جدًّا بالكاد يستطيع جهاز رسم المخ تتبُّعه، كان هذا التردد مستمرًّا طوال الوقت لا ينقطع أبدًا، لا يزيد حجمه، حاولت تتبعه أكثر، إن هذا التردد لا يأتي من المخ بل يصل إليه وكأنها محاولة اتصال تنتظر من الشخص الإجابة عليه... ما هذه الترددات ؟ ومن أين تأتي؟

****

كنت أعرف مكتب الضابط أحمد عن ظهر قلب فهذه أشياء لا يمكنني نسيانها، طرقت الباب وانتظرت قليلًا حتى سمعت صوته يقول:

- "ادخل".

فدخلت ورسمت الابتسامة على وجهي ورأيته... ما زال بوسامته المعهودة وملابسه الأنيقة التي تثير إعجابي به، شَعْره الأسود يُشعرني برجولته، حيويته، ونشاطه، رأيته يقف لي مُبتسمًا، جاء إليَّ وهو يقول:

- "آنسَة نادية، أهلًا وسهلًا، أخبار الوالدة إيه"؟

فانتابني الخجل، لا أعرف ماذا أقول، فشكرته على مجاملته الرقيقة، دعاني إلى الجلوس، جلست وقلت معتذرة:

- "أنا آسفة مرة تانية، بس ماما مفيش حد معاها غيري ولازم العلاج يكون في ميعاده.

فَرَدَّ متفهِّمًا:

- "ربنا يشفيها".

أكمل بنظرة متسائلة:

- "هو إنتي ملكيش أخوات، أو حد يكون معاها"؟

نظرت إلى الأرض فقد لمس جزءًا من حياتي أكره المرور به؛ ولكن سؤاله لم يضايقني، بل أحببت الإجابة عليه، أردته أن يعرفني أكثر، فقلت متذكرة:

- "أخويا مسافر بَرَّة من عشر سنين، بابا متجوز وعايش بعيد، أصل هو وماما مِطلَّقين من زمان".

فقال متأسفًا:

- آسف مش قصدي حاجة، عامةً ربنا يخليهالك.

فابتسمت على مشاعره الرقيقة، وقد أصرَّ إصرارًا شديدًا، على أن أطلب شيئًا لأشربه، مرت دقائق دونَ أنْ أنطق بكلمة واحدة فقد كنت شاردة الذهن، لا أعرف ماذا أفعل، فللحظات تذكرت معاملة أبي السيئة لأمي، مما جعلني أكره كل الرجال، نظرت إليه وقلت في سرِّي، "أستكون مثل كل الرجال، أم ستغير نظرتي".

أفقت على صوته وهو يقول:

- "تحبي تسمعي التسجيلات"؟

أجبت بالموافقة:

- "يا رب أفيدك".

ابتسم وهو يضغط على زِرّ تشغيل الصوت، استمعت إلى الكلمات، في بادئ الأمر اعتقدت أنها ستكون طويلة ومعقَّدة، تحمل كثيرًا من الألغاز، لكنها كانت قصيرة بل ومن أشهر الجمل الهيروغليفية على الإطلاق، وبعد الاستماع إليها سألني:

- "هادِّيكي نسخة عشان تترجميها براحتك".

رددت عليه مسرعة:

- "مش محتاجة أنا ترجمتها خلاص".

علَتِ الدهشة وجهه من سرعة استجابتي، ومعرفتي بها دون الحاجة إلى ترجمتها؛ مما جعلني أشعر بالفخر، فقلت مستعرضةً:

- "سيضرب الموت بجناحيه السامَّيْن كل من يعكر صفو الملك".

انتظرت لأرى تعابير وجهه، أستمتع بنظرة عدم الفهم التي رأيتها على وجهه، فقليلًا ما أواجه أحدًا أُظهر له مهاراتي، وخبرتي في العمل، أكملت موضحةً:

"العبارة منقوشة داخل مقبرة "توت عنخ أمون" مشهورة باسم "لعنة الفراعنة".

بدأ اهتمامه يزيد، سألني:

- "ممكن توضحي أكتر"؟

اعتدلت في جلستي وبدأت في الشرح واصفةً:

- "سنة ١٩٢٢ اكتشف مقبرةَ الملك "توت عنخ أمون"، المنقِّبُ البريطاني "هوارد كارتر" وكانت العبارة منقوشة على المقبرة، مَهتمِّش بالمكتوب، وكانت أول مقبرة سليمة، مش مسروق منها حاجة، كانت كاملة، تماثيل وذهب، إنجاز عظيم".

توقفت للحظة أسترجع ما حدث في ذلك الوقت ثم أكملت:

- "بعدها بدأت أحداث غريبة تظهر، بدأت بموت اللورد "كارنوف" وهو المموِّل الأساسي للتنقيب، كان مع كارتر وقت اكتشاف المقبرة، مات بالحُمَّى، وبدأت سلسلة بموت كثير من عمال التنقيب

في فترات قريبة، وحوادث عجيبة، الناس ربطت بين المقولة والحوادث وسموها "لعنة الفراعنة".

ابتسمت بعد أن أنهيت كلامي، تركت له فرصة لاستيعاب الأمور، فبادرني بسؤالي:

- "يعني لعنة الفراعنة حقيقيَّة؟!

- أكيد لأ، بعض العلماء - وأنا منهم - نؤمن بأن ده مجرد صدفة، أو أن المقبرة فيها طُفيليَّات، أول لما المقبرة فتحت نشاطها زاد، الوعي الصحي في الوقت ده كان ضعيف، فكتير من العمال ماتوا".

بدا التفكير على وجهه، وقال بصوتٍ عالٍ مفكرًا:

- "إيه يخلِّي راجل بنك، يقول الكلام ده؟! وبلغة سليمة كدة"؟!

نظرت له ببراءة، فلا أعرف ما علاقة المقولة بالرجل؛ فدوري إلى هنا يكون انتهى، أو هكذا ظننت.

****

- "دي آخر قطعة شيكولاتة في المطبخ".

هكذا قالت الممرضة باستحياء، وهي تضع طَبقًا من كيكة الشيكولاتة، مددت يدي بلهفة وأنا أشكرها، ظلت تنظر إليَّ وكأني لم آكل منذ سنين، رغم أنها منذ ساعة فقط أتت إليَّ بالعشاء.

رأيت تعجُّبها، حاولت مداعبتها قائلًا:

- "يا خسارة مع أن الليل لسة طويل، وكل ما الشغل يزيد كرشي لازم يزيد معاه".

أصابها الذهول وهي تقول باستياء واضح:

- "بالهنا والشفا".

ثم غادرت وتركتني أفكر أيكون عطلٌ في الجهاز يُخرج هذه الذبذبات، أم ماذا ؟! فإذا لم يكن كذلك فماذا يكون؟!! إني أراها محاولة اتصال من الخارج!!! لكن هذا لا يُعقل أبدًا، لا يوجد أي جهاز في الغُرْفَة يرسل هذه الإشارة، يجب عليَّ التأكد أولًا من صحة جهاز رسم المخ، قبل الدخول في استنتاجات لا يصدقها عقل.

****

نهضت بعد أن أصابتني التخمة، ثم ذهبت لغُرْفَة المريض وأنا أقنع نفسي بأن الركض سيزيل هذه التخمة، اصطحبت معي الدكتور المسؤول عن هذه الأجهزة، وبدأنا في فصل الجهاز عن المريض، واستبدال آخر به.

سمعت طرق الباب ورأيت الضابط أحمد ينظر باستعجاب، فأسرعت بإجابته:

- "أنا شاكك في الجهاز، عايز أبدله بواحد تاني".

نظر إلى المريض، ثم سألني في صرامة:

- "إيه الجديد عنك"؟

مسحت العرق من جبيني وقلت:

- "مفيش حاجة أكيدة، بس شفت بعض الترددات جاية من خارج الجسم، كنت عايز أتأكد منها".

نظر إليَّ وقد بَدَا عدم الفهم على وجهه، ثم قال:

- "تعالَ في مكتبك عايز أعرف إيه في دماغك".

انتهت الممرضة من إخراج الجهاز القديم، فأومأت رأسي موافقًا على ما تفعله، وجهت كلامي للممرضة وطلبت منها إعلامي فور تركيب الجهاز الجديد.

وما إن التفتنا إلى الوراء حيث استمعنا إلى صوت شهيق وزفير سريع، يأتي من المريض، كأنه لا يستطيع التنفس، حتى رأيت الاحمرار على وجهه، بدأ جسده في الاهتزاز، أمرت أحد الأطباء بتشغيل جهاز التنفس الصناعي، اتجهت مع الممرضة إليه، أمسكت بيديه، لاحظت ارتفاعًا كبيرًا في حرارة جسده، تسارعت أنفاسه، ازدادت حركته حتى ظننت أنَّه سيهب واقفًا، ودون سابق إنذار رأيته يفتح عينيه؛ شهقت الممرضة من المنظر، تراجعت للخلف، أخذ المريض ينظر للأعلى، تعالت صرخاته، حاولت تهدئته وقلت منزعجًا:

- "جهاز التنفس فين يلَّا بسرعة".

تحولت صرخاته إلى همهمات غير مفهومة، ازدادت حرارة الجسد بشكل لم أَرَهُ من قبل، وبدأت عروقه الزرقاء تظهر واضحة.

تكلم فجأةً، أو بالأدق بدأ بترديد الأرقام "اثنان، أربعة، واحد، ستة، تسعة،تسعة، سبعة...". وبدأ انفعالي يزيد، فقدت السيطرة على أعصابي، وما زال يعيد ترديد هذه الأرقام مرة في مرة، حتى صرخت في وجهه بانفعال شديد:

- "اهدا شوية، كدة مش هينفع".

وقد بَدَا أنَّه استجاب إلى ندائي؛ إذ هدأ فجأةً، رجع إلى نومه العميق، بدأت أنفاسه تتحسن وحرارة جسده تزول تدريجيًّا.

وسط كل هذا الذهول، والأحداث المتسارعة التي لم نُفِقْ منها إلى الآن، نظرت إلى الممرضة وأنا أسألها:

- "هل استطعنا تسجيل كل ما حدث"؟

فنظرت إليَّ وهي لم تكن قد أفاقت قط من ذهولها، فما رأته الآن لم تَرَهُ من قبل ولم نتصور حدوثه قط، فرَدَّت عليَّ مرتبكة:

- "إحنا لسة مركبناش الجهاز الجديد".

وأصابتني الحسرة والذهول، فما حدث الآن لم يتم تسجيله.

****

طرق الباب المكتب، وإذ بأمين شرطة يدخل علينا، توجه للضابط، ثم همس في أذنه بكلمات لم أسمعها ولكن الابتسامة ظهرت على وجه الضابط قبل أن يقول له:

- "تمام كدة، ولما تحليل الفيديو يظهر تعالَ بسرعة".

نظر إليَّ، ثم دعاني أكمل قصتي فأكملت حديثي وأنا أسترجع ذكريات محببة، عندما كان ابني يكبر أمام عيني، تمر السنون ونحن معًا ثلاثتنا، حاولت جاهدًا أن أوازن بين عملي دون الغفلة عن ابني، وقد ساعدني حسام كثيرًا.

وها قد جاء الصيف، ما زلت أذكر رقة صوته الطفولي وهو يقول ببراءة:

- "يلَّا يا ماما بابا مستني تحت عشان نسافر.

- حاضر، أنا خلصت، أوعدك أول لما نوصل هننزل البحر سَوَا".

رأيت الفرحة ملأت عينيه، وهو يقفز قفزات متنوعة تملؤها السعادة، نزلت معه، وداخل السيَّارة سألني حسام:

- "إيه كل ده، إحنا رايحين نصيِّف مش هنهاجر"!

ضحكت وأنا أقول مداعبة:

- "أنا مجبتش حاجة، دي كلها حاجات لابننا".

انطلقنا في شوارع القاهرة المزدحمة، إلى أن أخذنا الطريق السريع، قلت الحركة، وزادت السرعة، نظرت خلفي لأطمئن على ابني، فلمحت سيارة نقل كبيرة تسير بسرعة جنونية لا تتناسب مطلقًا مع حجمها الكبير.

اقتربت من سيارتنا كثيرًا حتى ظننت أنها تستهدفنا، لكنها سرعان ما تجاوزتنا بأمتار قليلة ثم انحرفت عن مسارها، كما لو أن سائقها فقد تحكُّمه في عجلة القيادة، لتنقلب بشكل مرعب أمامنا، ورأيت حازم زوجي يضغط على مكبح الفرامل بسرعة حتى شعرت بحزام الأمان يجذبني بشدة، ثم سمعت دوي الاصطدام، مرة فالثانية، فانحرفت السيَّارة، وبحركة لا إرادية انحرف زوجي بعجلة القيادة في الاتجاه العكسي، لم يستطع السيطرة، فقدت السيَّارة توازنها ثم انقلبت، وغامت الدنيا أمام عيني.

أين أنا... صداع شديد في رأسي حاولت تذكُّر ماذا حدث، ولكن الآلام منعتني من التفكير، حركت يدي لأجدها مكبلة بكثير من الأنابيب الطبية ولوهلة استرجعت كل ما حدث، الحادثة... أين زوجي وابني؟!

****

رأيت التوتر على وجه زياد، ونحن جالسون في مكتبه، فهي أغرب تجربة رآها بعينيه؛ لذلك لم أُصرَّ على الكلام، تركته ليلتقط أنفاسه.

نظرت إلى الممرضة مُبتسمًا:

- "ممكن عصير لمون... الدكتور أعصابه متوترة شوية".

أومأت مُتفهِّمةً ثم خرجت مغلقة الباب خلفها.

لم أصدق شيئًا مما رأيته، كنت أعتقد أن ما شاهدته من قتلي وجرحي على مدار عملي هو أغرب شيء، لكن اليوم قد تعدى كل هذا.

حاولت إيجاد أي تفسير منطقي لما حدث فلم أستطع، ما هذه الأرقام؟! لقد حفظت الرقم عن ظهر قلب وسرعان ما كتبته على الأوراق، فطبيعة عملي هي ما عودتني على سرعة الخروج من المفاجآت، وملاحظة أي شيء مهم حتى لو كان صغيرًا أو يبدو بلا أهمية.

طرقت الممرضة الباب، دخلت وهي ممسكة بكوب العصير، وضعته على مكتب زياد؛ فشكرها وما إن انتهى منه حتى بدأ يستجمع قواه مرة أخرى، ثم بدأ في الكلام وقال مفكرًا:

- "ده مش تنويم مغناطيسي.. ولا حتى من العلوم الفيزيائية المعروفة".

لم أَقُلْ شيئًا، وجَّه رأسه إليَّ ثم سألني:

- "عارف هتلر كان بيعمل إيه في الحرب العالمية الثانية"؟

فاعتدلت في جلستي والتعجب يملأ وجهي وأنا أجاريه الحديث:

- "لأ".

قام بالتوجه إلى الحائط، ثم بدأ في فتح ملف فيديو قديم وكأنه تقرير مصور أبيض وأسود يعرض لقطات من الحرب العالمية، وخاصةً أسرى الحروب وهم يقتادونّهم في طوابير لا تنتهي. ثم يحكي:

- "في الثلاثينيات كان هتلر عامل سجون ومعتقلات فيها كل المعترضين على النظام النازي من سياسيين، ويهود، وغجر، وآلاف من الأسرى في الحروب".

التفتُّ إليه وهو يكمل بطريقته الدراماتيكيَّة في التشويق، وسألني:

- "تخيل اكتشفنا إيه بعد ما الحروب خلصت".

أكمل حديثه وكأنه لا ينتظر إجابتي:

- "اكتشف العالم تجارب غير آدمية في كل المجالات العلمية والطبية، أسلحة كيميائية وبيولوجية، أدوية وحقن منشطة للجسم والعقل لمعرفة المزيد من الأسرار".

سكت لبُرهة ثم أشار إلى الفيديو للقطة تجمع كثيرًا من العلماء يدرسون شيئًا ما:

- "من ضمن التجارب كان في تجارب بتحاول السيطرة على عقل الإنْسَان، واستخدامه في تنفيذ أغراض معينة... في الأربعينيات من القرن وبعد نهاية الحرب، هرب كثير من العلماء لأمريكا، رحبت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمعروفة بـ (CIA) بهم، استضافتهم وساعدتهم، في مشروع كبير وهو دراسة العقل البشري، والبحث عن أفضل الأساليب للسيطرة عليه، المشروع كان سري من الدرجة الأولى، وفي السبعينيات زادت الأسئلة والشكوك من النتايج وفايدتها، فقرروا حرق كل الأوراق بداعي عدم جدواها".

فنظرت إليه وأنا أقول له مشككًا:

- "يعني المخابرات الأمريكية ليها يد في إللي بيحصل ده؟

- لأ... بس كثير من الأبحاث اتسربت، وكتير من العلماء، اشتغلوا في السر... أنا شخصيًّا استفدت من الأبحاث المتسربة في دراستي للعقل البشري... أنا مقدرش أعرف إيه ده بالظبط، بس أنا متأكد أن ده محاولة للسيطرة على العقل البشري".

لوهلة لم أستوعب ما يقوله وظننته فقد عقله، فقلت مشككًا:

- "ممكن تقول كلام معقول شوية"؟

أخذ ورقة من فوق المكتب وبدأ يدون فيها بعض الأرقام، ثم قال شارحًا ما يحدث:

- "لو افترضنا أن الأرقام دي في حد عايز يعرفها. يبقى هو كدة خلص شغله وعرفها، صح"؟

جاريته قائلًا:

- "لو هو سمعها معانا يبقى أكيد عرف الأرقام وخلص شغله".

ابتسم وهو يبحث عن أحد التقارير لرسم المخ والتي يظهر بها التردد الثابت الذي حيره، وهو يقول:

- "لو افترضنا أن التردد الصغير ده هو تردد اتصال بعقل المريض... يبقى من الطبيعي أن دلوقتي لو هو خلص شغله هيقفل الاتصال".

أخذت بُرهة لمراجعة واستيعاب ما يقوله زياد، وقد طرأ على فكري سؤال فسألته:

- "لو ده صح وتردد الاتصال ده موجود من فترة، ليه استنَّى الوقت ده كله عشان ياخد الإجابة"؟

- عشان منعرفش مكانه".

اندهشت كثيرًا بما يقول، دب الحماس في وجه زياد وقال متفاخرًا:

- "الرد حصل بس لما فصلنا جهاز رسم المخ، وبكدة هو يضمن أن مكانه ميتكشفش".. لو الجهاز شغَّال كنا سجلنا الرسائل، وعرفنا

أصلها، بس هو استنّى اللحظة المناسبة، اتأكد أنَّه غير مراقب بأجهزة رسم المخ، عمل الاتصال خد إجابته وهرب".

سمعت طرقات على الباب، دخلت الممرضة تحمل معها تقرير رسم المخ الجديد، فاتجه "زياد" إليها مُسرعًا، أخذ منها التقرير بلهفة شديدة مما أثار دهشتها، وبدأ يقرأ التقرير سريعًا، وكأنه يبحث عن شيء معين، رأيت البسمة على شفتيه، فعرفت أنَّه وجد ما يثبت نظريته فسألته:

- "التردد اختفى"؟

فنظر إليَّ والفرحة على وجهه وقال متفاخرًا:

- "أكيد".

ظهر الوجوم على وجهي، تساءَلت سرًّا، تُرى ما هذا الذي نواجهه؟

****

إنه حقًّا لمجنون، هكذا قلت لنفسي وأنا أراجع كل ما يحدث أمامي، أحاول أن أربط ما قاله لي زياد من أحداث ببعض، أجد خيطًا يقودني إلى الحقيقة، ما هذا الذي يحدث!!

لقد رأيت اليوم ما لم أَرَهُ من قبل، بالإضافة إلى رؤيتي لرجل يتكلم بلغة غريبة، وعالم فيزيائي يتكلم عن قدرات العقل البشري والتخاطر، وأخرى تتحدث عن لعنة الفراعنة.

ثم أرقام لا أعرف لها معنى، أين أجد الرابط بين هذا وذاك، لم أعُد أحتمل التفكير.

أشعر بأني في حاجة إلى مزيد من القهوة، ضغطت على الزِّرّ المتصل بالبوفيه، وطلبت فنجانًا، عدلت من جلستي لأراجع أوراق القضية مرة أخرى، نظرت إلى الأرقام... بدأت أدوِّنها في ورقة بيضاء أمامي كالتالي: ١٤، ٣٢٩، ٧٥٨، ٦٩٩، ٢٤١.

في بادئ الأمر اعتقدت أنها رقم هاتف، أو عنوان شارع؛ لكن كثرة الأعداد لا ترجح هذه الفكرة أبدًا، شككت بأنها أموال، ولكنها أيضًا تتعدى الأصفار الستة، وهو ما يزيل فكرة أن تكون أموالًا، فقد تكونت من أربعة عشر رقمًا.

حاولت تذكُّر ما الذي يحتاج إلى أربعة عشر رقمًا، فابتسمت، وأنا أتذكَّر أن كروت شحن المحمول تتكون من أربعة عشر رقمًا، وبطاقة الائتمان... انتفضت فجأةً فقد جالت ببالي فكرة لعلها تفيدني.

أمسكت بأوراق القضية ورجعت إلى نقطة أردت التأكد منها، وهي وظيفة المريض فإن لم تَخُنِّي ذاكرتي فهو يعمل موظفًا في أحد البنوك الأجنبية، اطَّلعت على بطاقته الشخصية فتأكدت، زاد حماسي وارتفع الأمل في الوصول إلى خيط جديد...

أمسكت هاتفي، اتصلت بالضابط هيثم، وما إن أجاب على هاتفه حتى قلت بلهفة:

- "إزيَّك يا هيثم، بخصوص قضيَّة المريض في المستشفى".

أمسكت بالورقة المدون عليها الأرقام، نظرت إليها مرة أخرى قبل أن أكمل:

- "الأرقام دي أنا شاكك أنها رقم حساب في بنك المريض، أو شيء له علاقة بالبنك، تابع الموضوع وبلغني".

أنهيت المكالمة معه وأنا أشكره على تعاونه.

فركت عيني في إرهاق حقيقي، وأنا ألهث وراء حدثي، الذي دائمًا ما يدلني إلى الحقيقة، وبدأت في وضع كثير من الاستنتاجات على ماذا يمكن أن يفيدنا هذا الرقم...

رَنَّ هاتفي... رفعت حاجبي متعجبًا من سرعة الإجابة، فلم أتوقع أن يكون البحث بهذه السهولة، ولكن زال اندهاشي عندما رأيت اسم المتصل.

فقد كانت نادية، أجبت بفرحة:

- "صباح الخير".

ردت عليَّ، وقد بَدَا الشرود على صوتها:

- "صباح النور، آسفة على المكالمة من غير ميعاد، بس في حاجة مهمة قوي لازم تعرفها".

انجذبت إلى حديثها، فاعتدلت في جلستي وقلت منتبهًا:

- "مفيش مشكلة، هو فيه إيه؟

- فاكر أوراق البردي إللي لقيناها في شقة البروفيسور الأمريكي؟

- إيه، مالها"؟

بَدَا التوتر على صوتها:

- "أنا كملت ترجمة باقي البرديات وعرفت أنَّه اكتشف إحدى المقابر لأحد ملوك الأسرة الثلاثين، وهي آخر أسرة في التاريخ الفرعوني، وانتهت على أيد "الإسكندر الأكبر" أكبر الغُزاة في التاريخ العالمي.

فأجبتها وأنا لا أفهم ما المهم في ذلك:

- "طب إيه الخطير في الكلام ده؟

فأكملت وكأنها لم تسمعني:

- المقبرة اكتشفها محميَّة بالسحر الفرعوني، "لعنة الفراعنة"، مكتوب على المدخل عبارة، أظنك تعرفها "سيضرب الموت بجناحيه السامَّيْن كل من يعكر صفو الملك"".

وهنا كانت المفاجأة التي قلبت كل شيء رأسًا على عقب؛ مما جعلني أشهق وأسألها بلا وعي:

- "مش دي نفس العبارة التي كان بيقولها مريض المستشفى إللي كلمتك عنه"؟

فأجابت في سرعة وكأن هذا هو ما ترمي إليه منذ البداية:

- "تمام،... جايز تكون صدفة، ترددت كتير قبل ما أقولَّك".

لم أكن أستمع إليها جيدًا، وقد أصابني الذهول، لم أتخيل للحظة أن تتعقد الأمور، ويكون كل ما يحدث هي قضيَّة واحدة.

شكرتها على مجهودها، مُنهيًا الحديث.

لا أعرف ماذا يحدث، ولا من أين أبدأ، أهذه المعلومة ستفيدني؟ أم أنها ستزيد من تعقيد القضية؟ أيُعقل أن يكون البروفيسور وراء كل ما يحدث !! ثم ما علاقته بالمريض؟!

لا بُدَّ لي من النظر بشكل آخر ... ولا بُدَّ لي من مزيد من المعلومات.

سمعت طرقًا على الباب، أجبت بلا إرادة:

- "ادخل".

فتح الملازم هيثم الباب، وقف أمامي بعد أن أخرج من حقيبته ظرفًا صغيرًا، قال بثقة:

- "المعلومات في الملف يا فندم.

أخذته بلهفة، وسارعت في فتحه وأنا أسأله:

- "فيها جديد"؟

فرَدَّ عليَّ في سرعة، وكأنه ينتظر السؤال:

- "قابلت مدير البنك وريته الأرقام، وأكد أن ده حساب في البنك للعملاء وأن الأربعة الأرقام الأولى بتأكد أن دي خزنة سرية".

نظرت له بعد أن جذبني حديثه؛ دعوته للاستكمال:

- "سألته عن اسم العميل، وبعد دقيقتين ظهر الاسم على الكمبيوتر".

ثم أخرج ورقة صغيرة مُدوَّن عليها اسم العميل، وأعطاها لي مكملًا حديثه:

- "هذا هو اسم العميل "البروفيسور مارك فيكتور"".

لم أكن أستطيع استيعاب كل هذا الكَمِّ من الأحداث المتلاحقة، فمنذ قليل ظهرت لي معلومات توحي بأن البروفيسور وراء ما يحدث، ثم تأتي بمعلومات تؤكد كل ما سبق، وتزيد من الغموض، نظرت إليه وأنا أسأله:

- "وعرفت إيه كان مخبِّيه في الخزنة؟

- لسة، أصل البروفيسور كان موصي بحرق كل حاجة في الخزنة في حالة وفاته".

انتفضت من مكاني، وبعصبية مفرطة وجهت حديثي صارخًا:

- "يعني إيه... الخزنة اتحرقت"؟!

هب الضابط خائفًا، عندما رأى انفعالي وتوتري، فقال والعرق يتصبب من وجهه:

- "إمبارح البنك عرف بالوفاة، والنهاردة الصبح بدأوا إجراءات الحرق، بس أنا أمرته بوقف الإجراءات دي عشان ممكن تفيدنا في التحقيق".

لاحظت الخوف على وجه الضابط من انفعالي غير المبرر، وقد أتم عمله على أكمل وجه، ذهبت إليه وربَّتُ على كتفه وقلت مهنئًا:

- "عفارم عليك، هو ده الشغل الصح".

دعوته للجلوس، ثم أكملت حديثي:

- "كمل إجراءات عشان نفتح الخزنة". متنساش لازم الإجراءات تكون مظبوطة، مش عايزين حد يمسك علينا ثغرة صغيرة".

نظرت إلى أوراق القضيتين، وبدأت في وضعهما في ملف واحد حتى أرتب أفكاري، وقلت مفكرًا:

- "يا ترى فيه مفاجآت إيه تاني"!

****

الفصل الثالث

«كل إنْسَان يصبح شاعرًا،
إذا لامس قلبَه الحبُّ».
أفلاطون

دمعت عيني وأنا أتذكَّر الحادثة وموت ابني وزوجي في نفس اللحظة، فبقيت وحيدة.

قام الضابط مؤمن وربَّت على كتفي، ثم قال متأسفًا:

- "أنا آسف طبعًا على الحادثة، البقاء لله، بس كنت عايز أعرف عملتي إيه في السنتين إللي بعديهم، عشتي لوحدك إزاي"؟

موتهم لم يكن هينًا عليَّ، أتذكَّر ضحكاته العالية، شقاوته التي أفتقدها، أذهب إلى الفراش فأرى زوجي وكأنه يناديني، أذهب إليه، فلا أجده.

بدأت أشاهد ابني في كل الأطفال، أنتبعهم إلى أن يصلوا إلى آبائهم، تدمع عيني، وأنا أشاهد الأطفال يلعبون، هذا الطفل يحضنه والداه، وتلك الطفلة تذهب للمدرسة مع أبيها، يُمطرها بقبلات السعادة، أصبحت متابعتهم تؤنسني. ومراقبتهم هي كل ما أملك.

لم تعُد مراقبتهم تكفيني، أصبحت شَغُوفةً بمعرفة ماذا يفعلون، أتخيل ابني فيهم وهم ذاهبون إلى مدرستهم، أرى نفسي في أمهاتهم وهن يُغنِّين لأطفالهن قبل النوم، وقد حالت الحوائط بيني وبينهم.

وها قد جاء دور التكنولويجيا... إلى متى سيبهرنا العلم، بداية من قوة البخار في تحريك القطار، مرورًا باكتشاف الكهرباء، ثم علم الحاسوب، والآن يأتي الإنترنت بكل ما فيه من خيوط عنكبوتية.

فبضغطة زر واحدة أستطيع مراقبتك، أستطيع معرفة ماذا تحب أن تأكل، وتلبس، وببعض الحرفية أستطيع رؤيتك !!!

فما أحمله الآن من كاميرا لاسلكية تستطيع أن تنقل لي صورتك، دون الحاجة إلى تثبيتها في بيتك أو مكتبك، كل ما أحتاجه هو قليل من الإحداثيَّات لتوجيه الإشعاع، وسيتم نقل صورتك، وأنا أحتسي القهوة وأستمتع بسخونتها. وبكوني خبيرة في الحاسب الآلي وتكنولوجيا المعلومات، أصبحت هي هواياتي.

تمكنت من مراقبة الأطفال، الآباء والأمهات، لم تعد تشبع رغبتي، فبدأت في مراقبة البشر بكل أنواعهم، أصبحت كالصائد، أنتقي من قطيع الغزلان إحداها، هذا رجل عجوز يبدو عليه التعب والروتين اليومي أكاد أراه في مشيته، لا لن أختاره فلن أجد فيه أي إثارة، وهذه فتاة تترجَّل في سيرها تحمل من هموم الدنيا ما يلغي من تفكيري مراقبتها... تُرَى أي صيد سأختار.

ظللت أنظر حولي أبحث وأدقق في الاختيار، فما سأختاره الآن سأبني عليه باقي اليوم، ظللت أدقق أكثر حتى لفت انتباهي قامته الشاهقة وخطواته الثابتة التي توحي بالثقة، وهنا بدأت حواسي في الانتباه، وقد أطلقت إشارة البدء وأعلنت موافقتها لرأيي.
أخرجت حاسوبي، وجهت إليه الكاميرا وبدأت في تحديد الإحداثيَّات، حتى تراءت لي هيئته كاملة، فابتسمت... هَا أَنا الآن سأبدأ في اللعب وقد نبت شعور داخلي أن اليوم سيكون مختلفًا، وأن هذا الصيد سيكون ثمينًا.

****

في صباح اليوم التالي، دخلت مع الملازم هيثم إلى البنك، فقد أوقف إجراءات الحرق، وحدد موعد مع مدير الفرع لاستقبالنا.
استقبلنا مدير الفرع استقبالًا سريعًا، وبَدَا عليه الالتزام الشديد بسرية التحقيق، ظل معنا حتى نزلنا إلى الدور الأرضي، فتح أمامنا كل العقبات التأمينية ببطاقته الخاصة، مررنا على كثير من الغرف التي لم يتوقف عندها، ونحن وراءه نتبعه في صمت.
حاولت سريعًا النظر إلى المكان، درسته بعناية، فقد كان عبارة عن ممر طويل يوجد به أكثر من عشر غرف على كل جانب، مرقَّمة ترقيمًا محددًا لتسهيل الوصول إلى ما تريد. توقفنا عند إحدى الغرف،

أدخَل بطاقته الخاص بعد أن مر باختبار فحص العين والبصمة، أضاء نور أخضر مما يدل على أن كل عمليات التأمين مرت بسلام، فتح الباب أمامنا ثم دخل إلى الغُرْفَة، وبإشارة من يديه يمنحنا الإذن بالدخول، وما إن دخلنا حتى قال بلهجة عملية:

- "هي دي خزنة البروفيسور مارك"...

مددت يدي لمصافحته، وإعلان شكري على مدى تعاونه قائلًا:

- "شكرًا، باقي فريق المعمل الجنائي في السكة، هيقوموا بشغلهم ونمشي علطول".

وبابتسامة رسميَّة توحي بتفهمه الأمور رد عليَّ:

- "وأنا هاكون في انتظاركم".

ثم أشار بيديه إلى هاتف داخل الغُرْفَة مكملًا حديثه:

- "لو عايزين حاجة كلموني من التليفون ده، هارُدّ عليه بنفسي... هاسيبكوا تشوفوا شغلكوا".

قالها وهو يتراجع للوراء ويغلق الباب خلفنا، وما إن فعل حتى قال هيثم:

- "هنعمل إيه دلوقتي"؟

لم أُجِب عليه مباشرة، ألقيت نظرة على الغُرْفَة، لم تكن بالحجم الكبير، تتوسطها طاولة بها كثير من الأوراق القديمة، فبدأت أسير نحو الطاولة وأرد عليه:

- "دوَّر على أي حاجة غريبة سواء كانت ورق أو حاجة مادية... وأنا هبُصّ على الأوراق دي إيه المكتوب فيها".

أمسكت بالأوراق لأجدها مزيدًا من البرديَّات المبهمة، لم تُصبني الدهشة؛ ولكني أيضًا لم أتوقعها، أو بالأدق تمنيت أن أجد حلًّا سريعًا من النظرة الأولى، وهَا أَنا الآن سأحتاج إلى نادية مرة أخرى... يا لسعادتي!

نظرت لهيثم وأنا أقول له مُحاولًا عدم لفت أي انتباه لما داخلي:

- "فاكر خبيرة الآثار ؟... كنا استدعيناها في أول القضية".

فرَدَّ سريعًا:

- "فاكرها يا فندم.

- حاول توصلَّها، هنحتاجها لتفسير البرديات دي".

أخذ هيثم هاتفه، وبدأ بالاتصال بفريق العمل، نبههم إلى ضرورة المجيء بنادية معهم. ثم أكمل بحثه في باقي الغُرْفَة وما هي إلا ثوانٍ وسمعته ينادي:

- "دي كانت موجودة في درج لوحده، أنا قولت لازم تبص عليها بنفسك".

التفتُّ، ورأيته ممسكًا بشيء لم أَرَ مثله من قبل، كان مُكعَّبًا صغيرًا أسود اللون، نُحتت في وسطه زهرة اللوتس.

فزادت شكوكي، وأنا أتساءل بداخلي، تُرَى ما هذا؟

أنصت الضابط مؤمن إلى ما أقول، ودعاني لاستكمال الحديث، فها قد اقتربنا من لُبِّ الموضوع، فابتلعت ريقي وجلست أحكي له ما حدث بالتفصيل.

أراه الآن على شاشة الحاسب الآليّ، كان طول قامته يثير فضولي، وارتداؤه لقميص أبيض، وسروال أسود، يعطيه طابعًا رسميًّا، توحي باهتمامه بأناقته جيدًا.

جلس في نفس المقهى الذي جلست به، تقدم له الجرسون يسأله:

- "تحب تشرب إيه"؟.

تمنيت سماع صوته، ولكني لا أملك هذه الخاصية في نقل الأصوات، فهي تحتاج إلى بعض الإمكانات العالية، وتصاريح ليس لمثلي يسهل الحصول عليها.

ذهب الجرسون، وعاد بعد يحمل قارورة ماء كبيرة، وضعها أمامه، وما إن انصرف حتى أمسك بها الرجل وبدأ يشرب منها، وقد اندهشت أكثر عندما رأيته يفرغها في جوفه على مرة واحدة، كأنه لم يذُق طعم الماء منذ فترة، أو أنَّه يسير لفترة طويلة حتى نال منه العطش.

ظل الرجل جالسًا لبضع دقائق أخرى ثم وضع بعض النقود على الطاولة، وقام من جلسته، تقدم الرجل إلى الأمام بخطوات ثابتة وبدأ في السير.

الآن يجب عليَّ التحرك حتى لا أفقد إشارتي، نهضت سريعًا، وكعادتي أن تكون سيارتي جانبي حتى لا أفقد مزيدًا من الوقت؛ ركبت السيَّارة، وظللت أحافظ على مسافة بعيدة تُمكِّنني من مراقبته دونَ أنْ يشعر بي.

رأيته يركب سيارته أيضًا، لم يكن الزحام شديدًا مما جعل من قربه مني شيئًا يسيرًا، كنت أراقبه من داخل سيارتي، وقد رأيته وبجانبه كثير من قارورات المياه الفارغة، وزجاجتان أو ثلاثة مملوءة، رأيته يتناول واحدة وأخرى، شربها على مرة واحدة، وكأن الماء الذي شربه منذ دقائق لا يكفي، فزاد تعجبي أكثر ولكني لم أكترث.

الآن أصبحنا خارج المدينة، وأخذنا طريق الفيوم، قل عدد السيارات أكثر مما ينبغي؛ مما اضطرني إلى الابتعاد عنه أكثر وتضييق نظام التتبُّع من صورة كاملة له إلى نقطة حمراء أتبعها من بُعد، مما يجعلني أشعر بالأمان أكثر.

رأيته يتجه إلى مناطق الآثار في الفيوم وبالتحديد يقترب من هرم سقَّارة والمقابر الفرعونيَّة هناك، وقد شعرت بخيبة أمل كبيرة فمن الواضح أن كل تتبعي هذا سيذهب هباءً على رجل محب للآثار، يريد أن يلتقط بعض الصور جوارها.

ولكن لا مجال للرجوع، فقد اخترته ويجب عليَّ مواصلة الصيد، وحاولت إقناع نفسي بأنها فرصة رائعة لي لرؤية هذه الآثار وتغيير

شيء من الروتين اليومي، ظللت أتتبعه حتى انحرف بسيارته وأوقفها في الركن المخصص لها جوار هرم سقارة، لم أكن أعلم أنَّه ليس الهرم الوحيد هناك، ولكن يوجد كثير من الأهرام الصغيرة التي لا أعرف شيئًا عنها.

انتظرت خروجه ثم أوقفت سيارتي في نفس المكان، أمسكت بحاسوبي، وأكملت متابعة رؤيته، رأيته يتجه تحديدًا إلى أحد الأهرامات البعيدة عن باقي الأهرامات، وإذا ببدوي يرتدي جلبابًا يهرول نحوه.

اقترب منه، سلم عليه، ظلا أكثر من عشر دقائق يتحاوران، ثم أخرج نقودًا من جيبه، لم تكن بالمبلغ القليل بل من منظرها توحي بأنها بضعة آلاف من الجنيهات، أمسكها الآخر بلهفة، وهو يتلفت حوله خوفًا من وجود أحد جواره، وما إن أخذها حتى أشار للرجل بالسير في هذا الاتجاه، سلم الرجل عليه مرة أخرى ووقف في مكانه إلى أن ذهب البدوي وابتعد عنه.

وبالخطوات الثابتة نفسها ذهب الرجل في الاتجاه المشار إليه، وقف أمام أحد أبواب الهرم، ثم فتح حقيبة اليد التي يمتلكها، وبدأ يُخرج منها بعض الأشياء التي لا أفهمها، فأسرعت إلى تكبير الشاشة نحو محتوى هذه الصور حتى أتمكن من رؤيته.

أخرج ملابس بيضاء من قطعة واحدة تشبه إلى حد كبير زِيّ الفضاء، وبعض العواميد المتساوية في الطول والحجم، بدأ في غرسها في الأرض على شكل نصف دائري، ثم ارتدى هذه الملابس الغريبة وأخرج عصاه من الحقيبة.

دق بها على العواميد ببطء، أعاد الدق مرة أخرى ولكن بسرعة أكبر، وفي كل دقة تزيد سرعته أكثر فأكثر، تعجبت مما يحدث أمامي، وتملَّكني الفضول في معرفة ما يفعله. ظللت أراقبه حتى اختفى، لقد اختفى... نعم اختفى بكل حرف في الكلمة، فجأةً وبلا مقدمات مع ازدياد الاهتزازات وطرقه على العواميد، اختفى ولم يوجد له أي أثر إطلاقًا وكأنه لم يكن موجودًا.

****

رَنَّ هاتفي المحمول، وأنا أحاول الاستيقاظ من نومي، كم كنت مجهدة لا أقدر على رفع يدي من تحت الغطاء لتناول هاتفي، لماذا لم أضعه على الوضع الصامت قبل نومي ليتسنى لي النوم جيدًا ؟! أو أن أغلقه تمامًا !!

انقطع الاتصال، فحمدت الله على ذلك وقررت مواصلة النوم.

لَمْ تَمْضِ ثوانٍ معدودة حتى رَنَّ الهاتف من جديد، ليعلن عن إصراره على إيقاظي وأنه لا يوجد مفر من الرد، اعتدلت في جلستي مقاومةً رغبتي في النوم ورددت على الهاتف دون رؤية المتصل، بَدَا النوم على صوتي:

- "صباح الخير.

- صباح النور، آنسَة نادية"؟

لم يكن الصوت مألوفًا إلى أذني، بخلاف قوة النوم التي ما زالت تداعبني، فرَددت عليه باقتضاب:

- "أيوة أنا... مين حضرتك؟

- آسف على الاتصال بدري كدة، بس دي أوامر من الظابط أحمد، طلب الاتصال بيكي، ونبعت عربية توصلك بيه، عشان فيه جديد في القضية".

شعرت بالحنق من جفاء المكالمة، فقد توقعت الاتصال بنفسه إذا أرادني في شيء، ولكن يبدو أن تصوراتي وما أتمناه أقرب من الخيال عن الواقع، فهو لم ولن يشعر بي، وكيف يشعر بي وأنا لا أحاول الاقتراب منه، ولكن رغم كل هذا الشعور المحبط فإن فرحة داخلية نمت داخلي لمعرفتي أني سأقابله.

آه يا حبيبي... نعم... فلم أعُد أستطيع مقاومة مشاعري وانجذابي نحوه... فتركت عواطفي تقودني على جواد العشق بلا سرج يحميني، تركته يقودني أينما شاء، لا أبالي بأي قيود أو عوائق أخاف منها، فأنا أستمتع بهذه اللحظات الرائعة، مما جعلني أجيب:

- "هي العربية هاتيجي إمتى"؟

فرَدَّ علي مُسرعًا وكأنه ينتظر سؤالي:

- "في الطريق".

فأعترض والدهشة تملأ وجهي:

- "بس أنا لسة صاحية وعايزة وقت"!

وبهدوء شديد قال:

- "خدي وقتك، العربي هتستناكي".

لم أجد ما يمكنني الاعتراض عليه، فأنهيت المكالمة معلنةً أني سأبذل قُصارى جهدي للنزول سريعًا، أغلقت معه الهاتف، وانطلقت من فمي ضحكة عالية، تعلن وللمرة الأولى انتصار عاطفتي على عقلي.

نهضت مسرعة لأرى ما أملكه من ثياب لألبسه، هذا قديم وألوانه باهتة... وهذا ضيق جدًا لن أستطيع ارتداءه - لا بُدَّ الآن من اتباع حمية لإنقاص وزني - يا إلهي ما كل هذه الملابس الرسميَّة، ألن أستطيع إيجاد شيء مناسب - لا بُدَّ لي أيضًا من التسوق سريعًا - ماذا أفعل الآن؟؟!!.

حاولت جاهدة أن أجد زيًّا يناسبني يكون جميلًا ورقيقًا، وفي الوقت نفسه يناسب طبيعة العمل لا أريده رسميًّا صادمًا، أو زاهيًا، وبعد معاناة شديدة رأيت شيئًا مناسبًا، وضعته جانبًا ثم ذهبت للاستحمام سريعًا حتى لا أتأخر أكثر من ذلك فالرجل ينتظرني... ثم توقفت فجأةً وأعدت سؤال نفسي والخوف يتملَّكني، أحقًّا هو ينتظرني؟؟ أم أني أتمنى ذلك!!

****

تملكني الذهول!! كيف اختفى!!، أهو عطل في الكاميرا؟!! وحاولت تحريكها يمينًا ويسارًا ولكنها تعمل بمنتهى الدقة!!
بدأت قطرات العرَق تنصبُّ على وجهي، ودقات قلبي تتسارع، لا أعرف ماذا أفعل، فكرت للحظات في الذهاب هناك، والبحث عنه بنفسي، ولكن قدميَّ لم تساعداني، وكأنهما تنبئانني بخطورة فعلتي؛ لذا قررت البقاء وانتظاره حتى يظهر مرة أخرى.
طال انتظاري لأكثر من ساعة بقليل، انتابني الملل، فقررت الانتظار عشر دقائق أخرى، إذا لم يظهر سأرحل وكأن شيئًا لم يكن، لم أكمل جملتي حتى بدأت شاشة الحاسوب في إظهار كثير من التموجات بلا معنى، تأتي الصورة وتختفي. اشتد انتباهي فأنا لا أعرف ما يحدث، ثم أظلمت الشاشة.

عادت الشاشة للعمل مرة أخرى وهنا جاءت الصاعقة، فها هو أمامي يظهر في الشاشة مرة أخرى، بملابسه الفضائية ذاتها، ظهر من عدم في نفس مكان اختفائه وسط العواميد المتراصَّة على شكل نصف دائري، ولكنه لم يأتِ هذه المرة لوحده بل كان معه شخص آخر أطول منه كثيرًا، وقد اعتقدت أنَّه أطول ما رأت عيناي، فكيف بالآخر أن يكون أطول منه، وقد أثارتني ملابسه، فهو لم يكن يرتدي ملابس عادية أو بذلة بيضاء كالتي يرتديها الآخر، لقد كان في زِيٍّ فرعونيٍّ كامل وكأنه في حفل تنكرية، وهنا فقدت قدرتي على التفكير، فما حدث أكثر من قدرتي على الاستيعاب.

****

ارتميت على الكرسي وقد أنهكني التعب، فلم أَنَمْ منذ أكثر من ست عشرة ساعة، منذ أن جاء إليَّ الضابط أحمد، وأخذني لرؤية المريض.

يا له من يوم عصيب!، ما زلت لا أفهم ماذا حدث، وقناعتي بأن ما حدث هو عملية تخاطر عن بُعد، زادت من حيرتي، كيف فعلها!! ومن يمتلك تلك التكنولوجيا، لا بُدَّ لي من المعرفة.

سمعت طرقات هادئة على الباب، فاعتدلت في جلستي وأنا أقول:

- "ادخل".

دخلت الممرضة، بَدَا عليها التعب وهي تبتسم بأعجوبة وتقول:

- "المريض فايق دلوقتي لو حابب تبص عليه".

أخذت معطفي وذهبت معها وأنا أحاول الهرولة ولكن جسدي أصبح ثقيلًا، لا بُدَّ من إجراء بعض الحمية لإنقاص هذا الوزن.

وما إن دخلت غرفته وقع نظري عليه، بَدَا هادئًا، ساكنًا، علامات الشحوب والضعف تملأ وجهه، اقتربت منه فرأيت نظرات الخوف في عينيه، فقلت للممرضة وأنا ما زلت أنظر إليه:

- "أكل أو شرب حاجة ولا لسة"؟

فاعتدلت وقالت في حزم:

- "مش راضي ياكل حاجة يا دكتور".

اقتربت منه أكثر وأنا أحاول بث الطمأنينة في قلبه، قلت بهدوء موجهًا كلامي نحوه:

- "إنت ما أكلتش من يومين... فلازم تاكل حاجة عشان صحتك تتحسن".

ظل ساكنًا في جلسته للحظات، لم يُبدِ اعتراضه فأومأت برأسي للممرضة لتأتي بالطعام، ثم مددت يدي وضعتها على كتفه، وقلت مُفاكهًا:

- "وأنا يا سيدي هاكل معاك... ولَّا أنت مش عايزني آكل"؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه، فعرفت بأنه بدأ يفيق من الصدمة، بدأت في محادثته، داعبته، حتى خرجت الضحكة من فمه، فضحكت قائلًا:

- "أيوة كدة، مفيش حاجة تستاهل... وبعدين كل الأشعَّة والتحاليل بتقول إنك زي الفل".

رفع رأسه للسماء، ثنى ركبتيه وضمها بيده وقال بصوت ميؤوس منه:

- "أنا مدايق إني مش فاكر حاجة".

لم أعلق، تركته يخرج ما في عقله لعلها تساعده للرجوع لحالته الطبيعيَّة، فأكمل متذكرًا:

- "آخر حاجة فاكرها أني كنت في البنك، خلصت متأخر زي كل يوم، سلمت على عم محمد البواب وركبت العربية.

ثم انتابته حالة بكاء، تحركت الممرضة نحوه، ولكني سارعت بالإشارة لها بالتوقف، وأن تَدَع دموعه تنساب، لم أتحرك، ظل يبكي بحرارة شديدة، بدأت في الهدوء قليلًا، فقال متهتهًا:

- "مش فاااكر حاجة".

ضممته إلى صدري وقلت له مهدئًا:

- "مفيش مشكلة، مش مطلوب منك حاجة... يلَّا كُلْ حاجة بسيطة... وأنا مكتبي جنبك لو عايز حاجة ناديني.

نهضت من جلستي، أمرت الممرضة بإعطائه بعض الفيتامينات وبعض المهدئات إذا استدعت الحاجة، أغلقت الباب خلفي، وقد تأكدت بأن ما حدث له لم يكن سهلًا على الإطلاق ولا بُدَّ للفاعل من أن يأخذ جزاءه، لن أتركه يهرب بسهولة.

****

رأيت نادية أمامي، وقد أتى بها مدير فرع البنك بنفسه، وقال في أدبٍ جَمّ:

- "الآنسة نادية وصلت، آسف للتأخير بس كان لازم ناخد بياناتها ونعمل الإجراءات اللازمة".

فأومأت برأسي متفهمًا، وأنا أوقِّع على الأوراق، شكرته على مجهوده، ثم انصرف تاركًا نادية تنظر إليَّ بابتسامتها التي جذبتني إليها من النظرة الأولى، مددت يدي مُصافحًا:

- "أهلًا بيكي، شكل القدَر في صفي عشان أشوفك مرة تانية".

فاحمرَّ وجهها، وبَدَا عليها الخجل:

- "شكرًا لمجاملتك الرقيقة، أنت غيرت نظرتي عن رجال الشُّرْطَة".

اختلج قلبي بين ضلوعي، وسرت قُشَعْرِيرَة في جسدي، فعلمت بأني غارق في حبها، سرحت بخيالي أخذتها لنطير إلى أعالي السحاب،

تمنيت البوح بحبي لها، أنظر إليها أتأمل رقتها، تمنيت كل هذا في لحظات بدت بالنسبة إليَّ قصيرة.

- "دي خزنة البروفيسور مارك".

هكذا قطع هيثم حبل أفكاري، مما جعلني أعتدل في وقفتي، نظرت إلى نادية وقلت مكملًا على حديثه:

- "في هنا برديات كتير، وأكيد فيها معلومات مهمة، وإلَّا مكنش خبَّاها".

رأيتها تمد يديها إلى بعض الأوراق تتفحَّصها في عَجَل، وقالت مستنتجة:

- "شكلها مختلف عن البرديات في بيته، دي فيها رسم لمعابد وطرق سرية".

فأبديت اهتمامي وأنا أطلب من هيثم، أن يناولني الجسم الذي وجدناه وسألتها مستفسرًا:

- "المكعَّب الصغير، عندك فكرة هو إيه"؟

أمسكته بحرص ثم أخذت تتفحَّصه وقالت نافية:

- "مش عارفة... بس زهرة اللوتس على المكعب أكيد لها معنى".

نظرت إليها طالبًا مزيدًا من التفسير، فأسرعت موضحةً:

- "رمز اللوتس عند المصريين هو عنوان الخلق، أسطورة المصريين زمان بتقول "الفوضى في كل مكان، ظلم وقتل، فساد وشر، الحياة

كلها للأقوى وبس". وفجأةً طلعت زهرة اللوتس بتنبت في الماء، وببطء تفتحت الزهرة، ظهر الإله، كان طفلًا في قلب الزهرة، شع نور من جسمه حوِّل الظلام إلى نور، الطفل ده هو إله الخلق منبع كل الحياة الإله "رع".

حاولت استيعاب ما تقول وربطه بالقضية، فقلت منبهًا:

- "وإيه علاقة القصة دي بالقضية"؟

تبلَّدت ملامحها وقالت آسفةً:

- "مش هاقدر أفيدك، بس أكيد الزهرة دي"...

توقفت نادية عن الكلام، تبدلت ملامح وجهها إلى الاستنتاج، ثم أكملت وكأنها تحدث نفسها:

- "أنا شوفت في مقالة زمان أن هُمَّا لما فتحوا مقبرة توت عنخ أمون كان فيه زهرة اللوتس في كل مكان، وافتكروا أن هي موجودة عشان تساعده في بدء حياة جديدة".

رفعت رأسها، وأخذت تنظر لأوراق البردي المنتشرة في كل مكان، ثم أكملت:

- "لو ربطنا بين الزهرة والرسالة على لسان المريض، هنشوف أن الرابط بينهم "توت عنخ أمون"".

تراجعت وأنا أقول منصعقًا من استنتاجها:

- "يعني إيه الكلام ده"!!!

فأجابت مفكرةً:

- "مش عارفة، بس أكيد ده مش صدفة... أنا لازم أترجم البرديات دي كلها أكيد هتوضح حاجات كتير".

فأومأت برأسي موافقًا وقلت:

- "بكرة الصبح هتكون نسخة كاملة من البرديات دي على مكتبك".

شعرت بانزعاجها من طريقة كلامي وصرامتي، لا بُدَّ لي من التعلم بأن هذا الأسلوب لا ينفع مع كل الناس، وقد يكون سبباً يجعلها تنفر مني، فأمرت الضابط هيثم بمواصلة البحث والحرص على إيصال نسخة من هذه الأوراق إلى مكتبها، ثم استأذنته بذهابي إلى مكتبي ودعوتها للانصراف معي.. مُحاولًا استلطافها:

- "لبسك شيك قوي النهاردة!"!

رأيتها تبتسم فهدأ قلبي، وعلى باب الخروج توقفت وقالت متذكرةً:

- "البطاقة بتاعتي أنا سيبتها مع الأمن".

فقلت مُسرعًا:

- "ثانية واحدة هاروح أجيبهالِك".

ترددت قليلًا ولم تجد ما تقوله؛ لذا سارعت بإنهاء الموقف والذهاب حتى آتي بها.

وقفت أمام موظف الأمن، طلبت منه بطاقتها بعد أن عرفته بنفسي، تسلَّمتها وأثناء وضعي للبطاقة في جيبي استوقفني الفضول للنظر إليها.

قرأت اسمها الثلاثي، وتاريخ ميلادها، يا لحظِّي!! فطبقًا للمكتوب فعيد ميلادها سيكون الخميس القادم؛ أي أنَّه بعد يومين.

****

ذهبت إلى مكتبي، ولا شيء يشغل تفكيري غير عيد ميلادها، كيف هذا !! أهي صدفة أن أعرفه قبل موعده ؟!! أم أنها ترتيبات القدَر؟، كل هذا لا يهم الآن دعنا من الماضي، ولنركز على ما يمكن فعله الآن.

كم أحببتها، تعلقت بها، شعرت من اللحظة الأولى بأنها ملكت حياتي، ومستقبلي، أصبحت أسيرًا في بحرها، أسبح بين أمواجه ولا يعرف الخوف طريقًا لي.

سمعت طرقًا على الباب مما جعلني أفيق من ذهولي، استعدلت جلستي، وأنا أقول للطارق بصوت يحاول الرجوع للواقع:

- "ادخل".

دخل عبد الحيّ القهوجي، يحمل في يديه كارتًا صغيرًا وبوجه بشوش قال:

- "في ظابط برَّة عايز يقابلك شخصيًّا، بيقول اسمه مؤمن".
حاولت تذكُّر الاسم ولكن بلا جدوى، فأشرت له بالسماح للدخول قائلًا:
- "خلِّيه يتفضل".
دخل الضابط مؤمن، ومعه فتاة في منتصف الثلاثينات، تبدو في كامل أناقتها، مما جعلني أقف لهما مُحييًا:
- "الظابط أحمد علي، من قسم الجنايات".
أسرع الضابط مؤمن يمد يديه إليَّ مصافحًا:
- "أشهر من النار على العلم يا باشا".
ثم عرَّف نفسه في تواضع:
- "أنا الظابط مؤمن، كنت معاكوا هنا قبل ما اتنقل أمن الدولة".
ثم أشار للفتاة جواره وهو يقول:
- "الآنسة مريم، أظن أن قصتها هتهِمّك، عشان كدة جيبتها بنفسي".
وبحزم شديد وثقة واضحة قال وهو يمد يديه بملف متوسط الحجم:
- "الملف ده أنا اتأكدت من كل كلمة فيه بنفسي، قبل ما أجيبه لحضرتك".
شد انتباهي أسلوبه، دَعوتُهما للجلوس وأنا أقول:
- "بصراحة أنا مش فاهم حاجة، بس يا ريت أقدر أساعدكوا".

دعاها الضابط مؤمن للجلوس وقال بأدب:

- "كدة دوري انتهى، الملف مع حضرتك، وهي هتحكيلك على كل حاجة".

ثم استأذن في الانصراف.

جلست أستمع إليها، وأنا أقلِّب في صفحات الملف، وقد استطاعت وبجدارة أن تجعل كل آذاني مصغية واهتمامي وتركيزي ينَصبُّ في اتجاهها.

فإذا جئنا للغرائب سأكون أكثر الناس شغفًا، وما حكته عن الرجل الذي اختفى وسط سقارة، هو الغريب بعينه.

****

أعدت النظر في النسخ المتراكمة من كل الأوراق التي أرسلها أحمد لترجمتها؛ مما جعلني أتساءل، تُرى عن ماذا كان يبحث البروفيسور مارك؟!

لديَّ إحساس بأنه وجد شيئًا ثمينًا، أو اقترب منه؛ زادني هذا الشعور شغفًا، تملَّكني الفضول لقراءة كل ورقة تركها خلفه.

ذهبت إلى المطبخ لإعداد مزيد من القهوة، فسمعت صوت تأوُّهات تأتي من غُرْفَة أُمِّي؛ أسرعت إليها لأجدها ترقد على الأرض بعد أن هزل جسدها، وضمر ثديها تمامًا، أصبح لون جلدها أدْكَنَ

ورأيت شعرها وقد بدأ يتساقط، فاندفعت نحوها أحملها، أتلعثم فتخرج كلماتي مضطربة:

- "إيه يا ماما إللي حصل؟ ماندتيش عليَّا ليه"؟!

قالت بصوت هَزَّه الألم:

- "مش عايزة أتعبك، كفاية شغلك".

- متقوليش كدة، يغور الشغل".

حاولت الابتسام ولكن عينيها لم تساعداها، وقد ظهر الإجهاد عليها:

- "أنا خلاص مش عايزة أكمِّل العلاج، كدة كدة هَمُوت".

لم أقْوَ على الاحتمال، فانسابت دموعي وأنا أضمُّها إلى صدري وقلت باكيةً:

- "متقوليش كدة يا ماما، إن شاء الله هتخفِّي وتبقِي زي الفل... يلَّا قُومِي معايا ونامي شوية".

بدَا عليها الاستسلام التام فأخذتها نحو السرير، بقيت جوارها حتى نامت، خرجت من غرفتها وقد علمت بأن ما تقوله صحيح، ولكني لا أقوى على العيش بدونها... آه يا أُمِّي... أرجوكِ لا تذهبي.

حاولت العودة إلى عملي، أملًا في إعادة التركيز إلى عقلي، وضعت الرسائل بين الملوك والأمراء فوق بعض، الخرائط المرسومة لكثير من المعابد، سرحت بهذه الرسوم رأيت خريطة لمعبد الكرنك التي أحفظها

عن ظهر قلب، وتلك لمعبد حتشبسوت، والأخرى لمعبد پتاح في مدينة منف.

وضعت البرديات التاريخية في جانب، ما زالت الحضارة الفرعونيَّة تبهرني، فمنذ بدأت تعلم اللغة الهيروغلفيَّة، ترجمت الكثير من البرديَّات، ظننت أنني قرأت كل شيء عنهم؛ ولكن العالم كل يوم يكتشف في شتى أنحاء مصر برديات أكثر مليئة بالأسرار.

تفحَّصت باقي البرديات التي ما زالت تحكي عن معابد كثيرة... يبدو أنَّه كان يبحث عن معبد معين، أو شيء في معبد يحاول الوصول إليه، بدأت في تصنيف المعابد، ولكن ليست بأهميتها عندنا، بل بكثرة البرديات التي تتحدث عنها.

وكما توقعت، كان هناك كَمٌّ هائل من البرديات التي تتحدث عن معبد "پتاح"!

رغم معرفتي الشديدة به، وبكونه معبد الإله "پتاح" وهو أقدم الألهة الفرعونيَّة، الذي يَعدُّه الفراعنة الرب الخالق لكل شيء، والذي تشكلت قدرته في خلق كل شيء.

تصفحت البرديات فكانت أغلبها تتكلم عن المعبد نفسه، شكله من الداخل، عدد الغرف، التراث المعماري به. يقع المعبد على تل أمام النيل في مدينة "كوم أمبو"، والذي تحول بعد فترة إلى معبد لعبادة الإله "حورس" والمعبود "سوبك" هذا المعبود ذو العينين المستديرتين

والذي سكن مستنقعات النيل، يشبه التمساح في شكله، فقد كان الفراعنة يقدسون الحيوانات ويعبدونها مع الإله.

تعمَّقت أكثر في البرديات لأجدها تتخذ مَنْحنى أكثر تخصصًا عن المعبود"سوبك" الذي له ارتباط وثيق بالقوة والجيش عند الفراعنة؛ لذا كانوا يعبدونه لحمايتهم من مخاطر فيضان النيل.

ثم تنوعت البرقيات التالية، فبعضها تكلم عن العلوم التي كانت تدرَّس في هذا المعبد، ومنها علم السحر، خاصةً الاختفاء، وسرعة التنقل فقد اشتهر هذا المعبد بعلم الاختفاء.

وها هي خريطة مفصلة للمعبد، أمسكت بها، وقد كانت مقسمة قسمين: القسم الغربي من المعبد وهو مخصص لعبادة "حورس"، والشرقي الذي خُصِّص للمعبود "سوبك"، أمسكت بالنصف الخاص لسوبك.

كان يبدأ بفناء كبير به مذبح للقرابين، كعادة الفراعنة، متصل بردهة كبيرة يتفرع منها عشرة طرق محاطة بالأعمدة على الجانبين، لفت انتباهي طريق من العشرة يتوسطه عمودان، وقد علمت من خبرتي أنها مخصصة للمعبود "سوبك"، بدأت في تفحُّص أكثر للمكان، أعجبتني الزخرفة المنتشرة في المكان، قبل أن أرى على أحد الأعمدة، رسمًا لمكعَّب تتوسطه زهرة اللوتس.

نفس رسمة المكعب الذي وجدناه في خزينة البروفيسور مارك.

حاولت استيعاب ما تحكيه مريم، عن اختفاء رجل عند هرم سَقَّارة، لم أكن أعرف ماذا أفعل! هل أصدقها؟!.. أم أنها تهذي بالكلام، لكن الضابط مؤمن أكَّد لي بأنه تأكد من كل كلمة تقولها، فسألتها في محاولة للفهم:

- "يعني هو فجأةً اختفى... والكلام ده متصور"؟

فأجابت بثقة:

- "والظابط مؤمن اتأكِّد بنفسه أن الفيديو سليم مش ملعوب فيه".

أكملت في محاولة لتأكيد روايتها، ولمعت عيناها قبل أن تقول واثقةً:

- "مراقبة الناس دي حاجة مخالفة للقانون، أكيد أنا مش مجنونة عشان أروح الشُّرْطَة فيحبسوني.. أكيد أنا حاسَّة بخطورة الموقف، وأن ده شيء خارج عن المعتاد".

توقفت للحظات، مدت يديها إلى حقيبتها، أخرجت هاتفها المحمول، ثم أكملت حديثها قائلةً:

- "ده الفيديو، يا ريت تتفرج عليه، هيأكِّدلَك كلامي"..

رأيته يختفي، انتظرت قليلًا حتى ظهر مرة أخرى، لم أستطع إخفاء دهشتي، وقلت مذهولًا:

- "الموضوع فعلًا غريب، هأراجع كل حاجة بنفسي وهكلِّمك".

نظرت إليَّ وبدا عليها الثقة والاطمئنان وهي تقول:

- "اتأكد براحتك، أنا واثقة من إللي عينيَّا شافته.

اتسعت عيناي دهشةً من ثقتها، فتأكدت من صدقها، فمن خبرتي علمت أيضًا أنها لن تهدأ قبل معرفة الحقيقة، ستبذل كل ما في وسعها، لذا يجب عليَّ أن أجعلها في صفِّي، ولو مؤقتًا إلى أن تتضح الأمور.

فوقفت أحيِّيها معلنًا انتهاء المقابلة بابتسامة وَدُودة:

- "خلاص، وأكيد هكلِّمك قريب"؟

فصافحتني وهي تهمُّ بالانصراف قائلة:

- "أنا في انتظار مكالمتك".

وما إن أغلقت الباب حتى دارت الأسئلة في رأسي، من يكون هذا الشخص؟! وماذا يفعل؟! وكيف اختفى وعاد؟!! إنها مجرد بدايات لأسئلة كثيرة.

نظرت للملف الذي أعطاني إياه الضابط مؤمن، ثم بدأت في قراءته بتمعُّن... يا لكفاءة جهاز أمن الدولة، فهم لم يتركوا تفصيلة في حياتها إلَّا ودونوها!

قرأت ملفَّها أكثر من مرة، تعاطفت معها كثيرًا، شككت في قصتها بعض الشيء، ولكن الفيديو المصور كان دليلًا لا يمكن لبشر أن يتغافله.

****

لقد مللت من جلوسي في المشفى، لا أقدر على فعل شيء، أتشوق للعودة إلى معملي فالأفكار التي جاءتني بعد دراسة المريض، فتحت لي أبوابًا جديدة، أصبحت موقنًا الآن أن الإنْسَان قادر على اختراق العقل، والتجول داخله؛ لذا سأركز على إجراء هذه التجربة مرة أخرى، ولكن بطريقة أخرى.

لذا؛ يجب عليَّ الاتصال بالضابط لأستأذنه في العودة إلى معملي، أمسكت بالهاتف، وما هي إلا ثوانٍ معدودة، حتى سمعت صوته وهو يقول:

- "دكتور زياد، إنت بدأت تقرأ أفكاري ولَّا إيه. كنت لسة هكلمك".

انتابني بعض التوتر، وأنا لا أفهم ماذا يريد، فقلت:

- "أنا خلصت شُغْلي هنا و"...

قاطعني بضحكة قصيرة استفزتني قال بعدها بتهكُّم:

- "فى حاجة تانية كنت عايز آخد رأيك فيها".

أثارت كلماته فضولي وأنا أتساءل عن حقيقة ما يخفيه:

- في حالة اختراق تانية حصلت؟!

لكنه واصل كلامه مُتجاهلًا سؤالي:

- "حاجة أغرب بكتير... في حد اختفى"!

زادت دهشتي وبترقب سألت:

- "قصدك إيه باختفاء!!
- مش هينفع الكلام في التليفون، في عربيَّة هتجيبك مكتبي".
لَمْ يَمْضِ أكثر من ساعة على مكالمتي للضابط أحمد، وكنت أطرق عليه باب مكتبه، دخلت بعد أن أذن لي، لم أقدر على الانتظار أكثر، فسألته وأنا أصافحه:
- "فهِّمني، أنا طول الطريق مش فاهم حاجة"!
بَدَا على وجهه علامات التفكير والاتزان، قبل أن يمسك هاتفه المحمول وأعطاه لي وهو يقول:
- "اتفرج على الفيديو ده الأول".
بدأ الفيلم برجل طويل القامة بشكل ملفت للنظر، وهو يزرع في الأرض بعض الأعمدة المصنوعة من مادة الألومنيوم، ثم بدأ في الطرق عليها واحدًا تلو الآخر بعد أن ارتدى الزِّيّ الخاص به.ظل يفعل ذلك في سرعة متزايدة إلى أن اختفى.
عجزت عن النطق من هول المفاجأة، فما أراه في الفيديو أكبر من قدرتي على التفكير.
ظل المشهد صامتًا لدقائق معدودة قبل أن يعاود الظهور مرة أخرى، وبرفقته الرجل الفرعوني.
انتهى المشهد على ذلك، بعد أن انتابتني حالة من عدم الفهم لما يحدث أمامي، عاودت مشاهدته وأنا أتساءل بحَيْرَة:

- "الفيديو ده جالكوا إزاي"؟

فرَدَّ عليَّ في محاولة منه لعدم تشتيت انتباهي والتركيز فيما أشاهده:

- "مش مشكلتك، الفيديو ده تعامل معاه على أنه سليم ومش مزور... عايزك تفسرلي إيه ده، وحصل إزاي"؟!

عدلت نظارتي، بعد أن شاهدت الفيلم للمرة الخامسة، بدأت في وضع بعض النقاط، وأنا أقول:

- "دي مش حالة اختفاء".

رأيت الوجوم على وجهه وهو يتساءل:

- "يعني إيه؟.. أُمَّال ده إيه"؟

****

دققت النظر في رسمة المكعب أمامي، إنَّه هو بالفعل، نفس الرسمة، تُرى ما فائدته؟! ولماذا يحتفظ البروفيسور به في خزنة خاصة؟!

عاودت جمع البرديات المتعلقة برسمة المكعب، جذبتني بردية بها قصة عن كاهن يمسك بعصًا سحرية، يبدأ بقراءة بعض التعاويذ السحريَّة، ثم يضغط على المكعب فيختفي ويظهر في وسط غُرْفَة مغلقة، ليفاجئ الموجودين بحضوره من العدم.

ها قد بدأت الأساطير، إذًا فهذا المكعب هو أداة للتنقُّل استخدمها القدماء، وقد استطاع البروفيسور الوصول إليها.ولكن أين العصا؟

بحثت أكثر بين البرديات فلم أجد شيئًا، سوى معلومات عن راهب يُدعَى "حم نتر"، وكان آخر رهبان المعبد الذي مات مدافعًا عنه.

لفت انتباهي ورقة صغيرة باللغة الإنجليزية دوَّنها البروفيسور مارك، كتب فيها: أخفى حم نتر العصا بعد خلاف مع ابنه، ثم تلتها معلومة أخرى.

لم يوافق الراهب على أفعال ابنه "أموس"، وحاول بشدة منعه ولكنه لم يستطع.

انتهت الملاحظات بجملة غريبة، ألا وهي: لا بُدَّ لي من العثور على العصا قبله.

حررت عقلي من تلك الخرافات وبدأت في سؤال نفسي، من هو الشخص الذي يحاول البروفسيور منعه من الوصول للعصا؟! أيكون هذا الشخص هو من قتله؟، وما علاقة معبد بتاح بالقصة؟، ومن هو هذا الراهب الذي يبحث البروفيسور في حياته؟ فركت عيني في إرهاق شديد بعد أن دفعني الفضول لمزيد من البحث، كل النتائج كانت تؤدي إلى المعبد، تُرى، ما سر هذا المعبد؟

****

استرجعت إحدى محاضراتي وأنا أتحدث مع الضابط أحمد، والتي تتكلم عن"الشوكة الرَّنَّانة" والتي تُستخدم في تدريس علم الصوت في الفيزياء ودراسة الرنين.

التفتُّ إلى الضابط "أحمد" وقد بَدَا الاهتمام عليه، فأنصت إليَّ، ثم تركني أقول موضحًا:

- "من الناحية العلمية، العواميد في الفيديو شبه حاجة اسمها "الشوكة الرنانة" موزعها بشكل دقيق جدًّا، والاهتزاز ده أكيد كان عايز يرفع الصوت لدرجة معينة؛ وبالتالي تردد الموجات هيرتفع".

فقاطعني متسائلًا:

- "وهيفيده بإيه رفع التردد"؟

أكملت حديثي:

- "في نظريات بتقول، إن عين الإنْسَان بتشوف الأجسام في حدود تردد معين، فلو زاد التردد أو قَلّ، العين مش هتشوفه، وهتحس أنه اختفى".

حاول أحمد استيعاب ما أقوله فسألني مُستفهمًا:

- "قصدك أن الراجل رفع التردد فوق مستوى تردد النظر، عشان منشوفش حاجة"؟

فأجبت سريعًا:

- "بس دي كلها نظريات، تغير تردد الجسم ده محصلش عمليًّا، وكمان لو افترضنا أن الجسم ده قادر يغير التردد، وحاول يخرج بَرَّة الدايرة، هنشوفه عشان الجسم بَرَّة الدايرة هيرجع لطبيعته".

بدأت في وضع مزيد من الاستنتاجات، وقلت بصوتٍ عالٍ مفكرًا:

- "بس يا ترى الاختفاء هيفيده إزاي لو مش هتحرَّك من مكاني"؟

أخذ الضابط يجاريني في لعبة الاستنتاجات فسألني:

- "قصدك أن الغرض ماكَنْش الاختفاء وكان حاجة تانية؟ زي إيه مثلًا"؟

ترددت كثيرًا وأنا أقول:

- "أنا شايف أن ده مش اختفاء، ده كان حالة انتقال من المكان".

بدَا من الواضح عدم قدرته على الاستيعاب، أخذت جلسة الدكتور الذي يبهر التلاميذ بمعلومات جديدة عليهم، وقلت شارحًا:

- "آينشتاين قال في نظرية من نظرياته، لو عرفنا نفكِّك جزيئات الجسم ونجمعها في مكان تاني ده اسمه "انتقال أيوني"".

أكملت مُستدلًّا ببعض التجارب:

- "أول تجربة نقل أيوني كانت سنة ١٩٦٩، وفيها عرفوا ينقلوا صندوق من أوضة لأوضة تانية على بُعد ستة متر، باستخدام الألياف الكهرومغنطيسية، بس يا خسارة الصندوق اتجمَّع بشكل عكسي".

رأيت الذهول في عينيه، فأكملت موضحًا:

- "سنة ١٩٩٣ وباتفاق مع شركة IBM المتخصصة في علم الكمبيوتر، نقلوا قطعة معدنية لمسافة تسعين سنتيمتر، ونجحت التجربة، بس عملية النقل خدت ساعة وست دقائق، عشان كدة قالوا ده مش نقل أيوني".

توقفت عن الكلام؛ حتى أرى مدى استيعابه لما قلته، فسألني:

- "يعني من الآخر أنت شايف أن إللي في الفيديو ده نقل أيوني"؟

أجبت وأنا لا أستطيع الجزم:

- "عدد الذرَّات في جسم الإنْسَان قُرَابة (عشرة وجوارها ٢٨ صفر) مفيش في العالم حد يقدر يمسح وينقل الجسم بالسرعة دي".

عاودت النظر للفيديو مرة أخرى وقلت مشككًا:

- "واضح في الفيديو أنَّه تم النقل لمكان آخر، ورجع معاه شخص جديد".

أشعل الضابط أحمد سيجارته، وهو يحاول إعادة تقييم ما أقوله فرَدَّ مفكرًا:

- "طب لو ده نقل من مكان لمكان تاني... يا ترى فين ده"؟!!!

عدلت نظارتي وأنا أكمل حديثي قائلًا:

- "من شكل ولبس الراجل التاني، أظن أن الانتقال كان من مكان قريب مش بعيد".

فالتفت إليَّ وقال مندهشًا:

- "أنت عارف المكان فين"؟!

فأجبت وأنا أحاول رسم الثقة:

- "بناء على المعلومات المتاحة أعتقد بأن هذا الرجل جاء من مصر ولكن من زمن آخر".

قمت من جلستي وبكل فخر قلت بصوت رنَّان:

- "الفيديو ده حالة سفر عبر الزمن إلى العصر الفرعوني".

فتح الضابط أحمد فمه عن آخره، والدهشة ملأت وجهه؛ فما سمعه مني الآن لم يَجُلْ بخاطره، بل لم يأتِ في كوابيس أحلامه".

****

الفصل الرابع

«لا تؤدي أعمال الإِنْسَان إلى شيء،
إنَّما إرادة الله هي السائرة».

الوزير پتاح حتب

"يا بْنَ أوزير، أصلِّي إليك صلواتي اليوميَّة... يا من أتيت من رحم إيزيس لتملأ لنا دنيانا بنورك... يا إلهي، وإله آبائي حورس باسمك نحيا، وبنورك تضيء لنا الظلام... يا أصل الحياة، كم أنت عالٍ في أفق السماء!، تملأ الأرض بأشعتك، ترسم النهار بآثار أقدامك، لتبث الحياة في الشجر من حولنا، والطيور من فوقنا، تمدنا بروحك لنهتدي بها... تقبَّل صلاتي، بارك أعمالي، وأرشدني إلى الصواب، فعندما رأيتك في أحلامي، وأنا ألبِّي أوامرك... كم أحبك يا إلهي حورس!".

هكذا انتهى الكاهن "حم نتر" من صلاته الصباحيَّة، في معبد "پتاح"، أمام تمثال للإله حورس.

كان يرتدي الكَتَّان الأبيض، كعادة كل الكهنة في العصور الفرعونيَّة، بدأ يخطو خطوات ترتعش فيها يداه لكبَرِ سِنِّه، فقد تعدى الأربعمائة عام بقليل، أصبحت العصا لا تفارقه في تحركاته.

تستمع لقرع العصا يملأ جنبات المعبد من شدته، أخذ يشق طريقه في بطء يتأمل جدران المعبد العالية والعواميد الشاهقة، وتستمع لخرير الماء الذي يجري في أطراف المكان.

اصطفاف الجنود على الجانبين والرهبة في النفوس تُشعرك بالتوتر، ولِمَ لا وهو الكاهن الأكبر في المعبد، هو رسول الإله، المتحدث نيابةً عنه، فما يباركه هو يباركه الإله، ومن يغضب منه يغضب منه الإله.
وها قد وصل إلى ردهة المعبد، فقد حان وقت تقديم القرابين للإله، والتي هي من واجباته اليوميَّة أن يحضرها ليبارك لمقدم القرابين، وكما نعلم فإن الغني، والفقير، المتعلم والجاهل، كانوا سواءً في تقديم القرابين ليُعلنوا إيمانهم العظيم بوجود تلك الآلهة والتقرب منها.
جلس الكاهن في الكرسي المخصص له بعد أن بدأ الناس في الحضور، تراصَّ الناس في صفوف لا ترى آخرها، نظر الكاهن لمن حوله بنظرة هادئة، ثم أومأ برأسه لأحد العاملين علامةً على بدء تقديم القرابين.
تقدم كبير الحرس وبصوت جهوريّ نادى على أول المتقدمين فتحرك، وهو يمسك الإوَزّ، الذي كان يحبه المصريون في ذلك الوقت، تقدم الرجل إلى المذبح، بدأ في إيقاد النار، وما إن اشتعلت حتى أتى بالإوز وبدأ في سلخها، وهو يرتل بعض الأبيات الدينية تقربًا إلى الإله، ثم جاء ببعض النبيذ، وبدأ في سكبه على الإوز.
وضعها في النار فانهالت الصيحات، متمنيةً مباركة الكاهن، ظل الكاهن ينظر إلى الجميع، ثم أومأ برأسه موافقة دليلًا على قبول القرابين، فتراجع الرجل، راكعًا وهو يشكر الكاهن على قبول القربان.

نادى العامل على الرجل الآخر ليفعل مثلما فعل مَنْ قبله... استمرَّ الكاهن في تقبُّل القرابين ورفضها لثلاث ساعات، إلى أن أعلن العامل انتهاء الوقت، وعلى الباقين المجيء في الغد.

سرت همهمات اعتراضية على انتهاء التقديم، ولكن سرعان ما اندفع الحرس لصرف الجميع فعاد الهدوء للمكان.

دخل الكاهن المعبد مرة أخرى، وظل جواره أحد الكهنة الصغار، يساعده في أي شيء يطلبه، لم يتحدثا بكلمة، وهما في الطريق إلى قاعة كبيرة مضاءة بقليل من الشموع؛ مما يعطي رهبة للمكان.

توقف الكاهن أمام نهر صغير من الماء، ظل ينظر إليه لدقائق معدودة، وبجواره الكاهن الصغير يقف ساكنًا، إلى أن بدأ الكاهن "حم نتر" في الكلام وهو يقول:

- متى سيعود ابني "أموس" من رحلته؟

فرَدَّ الآخر قائلًا:

- من المفترض أن يأتي الآن في أي لحظة.

****

كانت البداية جريمة قتل عالم آثار، قبل أن ندخل في قصة تخاطُر الأفكار، ثم تأتي حكاية السفر عبر الزمن، لا بُدَّ أنني مجنون لأسير وراء هذه المهاترات.

أشعر بأن كل ما يحدث يتصل ببعض بطريقة أو بأخرى، ولكن كيف أجدها، تُرى من يكون الفاعل؟ وكيف أجده؟ لا بُدَّ لي من البحث أكثر، لا بُدَّ لي من معرفة ما يخبئه البروفيسور مارك في بردياته.

وهنا تذكرت نادية، اتصلت بها، وما إن ردت حتى قلت باسمًا:

- "يا ترى اتكلمت في وقت مش مناسب"؟

ضحكت مداعبة وهي تقول:

- "أنت ظابط، تتكلم في أي وقت محدش يقدر عليكم".

فابتسمت وأنا أكمل حديثي:

- "لازم تغيّري فكرتك عن الظباط دي تمامًا... إيه رأيك نتعشى بكرة سوا وأحاول أوريكي وش حلو للظباط"؟

يبدو أن ما قلته لم يَدُرْ بخَلَدِها، فأحسست بطول صمتها، وتردُّدها في القبول، لذا أسرعت موضحًا:

- "وكمان كنت عايز أعرف إيه الجديد في البرديات دي، وأحكيلك عن حاجات جديدة في القضية".

سبقها فضولها بالقول:

- "وصلتوا للقاتل"؟

قهقهت ضاحكًا:

- "مش بالسهولة دي، القضية بتتشبك يوم عن يوم، لدرجة أنا مش عارف هُمَّا قضيَّة واحدة ولا كذا قضية في وقت واحد".

كان واضحًا على صوتها عدم الفهم وهي تجيب:

- "خلاص يبقى بكرة نتعشى سَوَا... أنا كمان اكتشفت حاجات عايزة أحكيهالك".

انتهت المكالمة وأنا لا أصدق أني فعلتها، فهَا أَنا أخطو أولى خطواتي نحو حياة جديدة، لذا يجب الاستعداد جيدًا للقاء الغد.

****

ظل الكاهن "حم نتر" مُتكئًا على عصاته صامتًا، وكأنه أحد التماثيل الثابتة لا يرمش له جفن، يحدق إلى دائرة من الأعمدة المصنَّعة من مواد لا تتناسب مع العصر الذي هم فيه، ولكن عقله كان يعمل بكفاءة في ترتيب الأحداث.

فمنذ أن علم برفض الملك "أحمس الثاني" طلب زواج ابنته من الملك "كورش" - أحد أهم قادة الفرس، وقد استشعر الخطر، وما هي إلا شهور قليلة حتى أعلن الفرس الحرب، فتوالت الهجمات على مصر.

- أيُّها الكاهن العظيم، ماذا سنفعل الآن؟!!، فقد علمنا باقتراب الفرس من بلدتنا.

هكذا قال كبير الحراس وقتها، أتذكَّر رَدِّي جيدًا:

- نحارب ونحافظ على المعبد إلى النهاية، لن ندَعَ الفرس ينهبون أولادنا ويستحيون نساءنا.

سارعت بإرسال رسالة إلى الملك أحمس الثاني أطالبه بتعزيزات، ولكن بلا جدوى، فانشغاله وضعف حيلته منعه من الرد.

انتشرت الأخبار بتوالي السقطات وكثرة الهزائم في الجيش المصري، دافعنا عن المعبد بكل قوة، مات الكثير، وانتُهبت خيرات البلاد، فلا مفرَّ من الاستسلام حتى لا نفقد المزيد.

وهنا أعلن الملك قمبيز ملك الفرس ضم مصر إلى بلاد الفرس، أتذكَّر مرضي الشديد، في ذلك الوقت، فلم أجد من المساندة ما يمدني بالأمل، تُرى أهي النهاية أم ماذا؟

****

أخيرًا ذهبت لمعملي، رغم فقره الشديد ولكني أحبه، وقع نظري على الثلاجة فهرولت في عُجالة إليها، أملًا في إيجاد ما آكله ولكن حظي السيِّئ هو ما اعتدت عليه فكانت فارغة، رأيت حَبَّة من التفاح فأخذتها وأنا أتأسف لبطني على الجوع الذي تسببت فيه. فتحت حاسوبي وتفحَّصت بعض الملفات عن الترددات، قارنتها بالترددات التي كانت في عقل المريض، فلم أجد أي صلة من قريب أو بعيد،

تُرى أيكون نفس هذا الرجل الذي حاول الاختفاء هو نفس الرجل الذي بعث بالتردد لعقل المريض؟

بدا هذا الرأي مقبولًا لي؛ فليس من السهل أن يوجد شخصان حاولا استخدام نفس التكنولوجيا المُعقَّدة، في نفس البلد ونفس الزمن.

من هذا الرجل؟! أيكون من زمن آخر؟!! أم تكون هذه إحدى التجارب السريَّة، والتي وصلتنا بمحض الصُّدْفة.

طرأت في رأسي فكرة، وقلت لنفسي، لمَا لا أبعث إليه برسالة على نفس التردد الذي وجدناه في عقل المريض. لعله يجيب عليَّ.

رَنَّ هاتف مكتبي، لم أهتم، دق مرة أخرى وأخرى كأنه يقول لي سأصيبك بالجنون إذا لم ترد، أمسكت الهاتف، كان المتصل الدكتور "حسن" مدير المعامل يريد رؤيتي لأمر مهم، فسألته:

- "ممكن نأجِّل المسألة دي عشان مشغول"؟

فرَدَّ عليَّ بنبرة حادة وجِدِّية واضحة:

- "ماينفعش، الموضوع مايستحملش التأجيل".

توقعت أن يكون حديثه موبِّخًا، عن آخر ما توصلت إليه من أبحاث، وأن ما أفعله بلا فائدة، وإذا لم آتِ بالنتائج المرجوَّة سيوقف التمويل، وتذكرت جملته المعهودة:

- "الحكومة مش بتدفعلنا عشان نطيَّر حمام يا بيه، إحنا هنا قسم العلوم والأبحاث، أمل مصر والمستقبل".

لم تكن المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة التي سأستمع فيها لهذا الحديث. ولكن يجب عليَّ تنفيذ فكرتي بإرسال الرسالة قبل الذهاب إلى مكتبه، وفي عُجالة أتيت ببعض أجهزة الإرسال، ثم بدأت في التعديل في برمجيتها لتناسب ما أريد أن أفعله، والآن لا يتبقى سوى شيء واحد وهو إرسال الرسالة على هذا التردد، تُرى ماذا أقول له، أسيفهمها، هل ستصل إليه؟.

ابتسمت قبل أن أكتب " أهلًا بك... أريد رؤيتك".

تركت المعمل ذاهبًا إلى مديري، وما إن دخلت حتى قال بغضب شديد:

- "عملت إيه يا بيه، ظابط الشُّرْطَة خدك على فين"؟

فتسمرت في مكاني، كيف علم بهذا الأمر، وماذا سأقول له؟!

- أيها الكاهن العظيم، أتوسل إليك بالمساعدة، فأهل بيتي لا يجدون ما يأكلونه.

دمعت عيني وأنا أستمع للفلاح المصري الضعيف، لا أملك شيئًا أعطيه له، فقد عزف الناس عن إعطاء القرابين ولم يعد بالمعبد من شيء سوى العبادة، حاولت بث الأمل وأنا أقول:

- ادْعُ للرب من قلبك، وسيأتي لك...

قاطعني الفلاح غاضبًا:

- ليست هذه المرة الأولى التي تقولها لي، لقد نسينا الرب، رغم كل ما فعلناه، لقد انتهيت من كل هذا، لن أعود إليك مرة أخرى... لن أعود لعادتنا القديمة... أريد الطعام فقط، سأسرق جيراني لو اضطررت إلى ذلك.

ماذا حدث للمصريين، لقد عمت الفوضى المكان، أصبح الكل لا يشغله سوى قُوتِه اليومي، يا لحزني الشديد!

مرت عشرات السنوات، ولم يتغير الحال، بل زاد أكثر، إلى أن سمعنا بالملك المقدوني "الإسكندر الأكبر". صاحب الخوذة ذات القرنين التي يُشاع أنها مصدر قوته، وسمعنا باقترابه إلى مصر، ومحاربة الفرس.

بدأت أفقد الأمل، إلى أن جاء ابني "أموس" من معبد "بتاح" في منف، استطاع إرجاع كثير من الناس للعبادة، بعد أن علمهم طرقًا حديثة للزراعة، وتربية الحيوانات. ثم بدأ يمارس بعض الشعائر المريبة، فيختفي لأيام ثم يظهر مرة أخرى بأفكار وأشياء غريبة، لم أرَ مثلها من قبل.

معجزاته بدأت تنهال علينا، إصراره العجيب بقدرته على النصر وهزيمة الإسكندر الأكبر جعلتني أباركه وأرفع من شأنه بين الناس.

حاولت معرفة أين يذهب وكيف يعود لكن دون جدوى، لا أملك إلا انتظاره وأنا أنظر إلى تلك العواميد.

مرت الدقائق وكأنها ساعات والكاهن ينظر إلى دائرة الأعمدة التي صنعها ابنه وقال له أن يتركها هكذا، إلى أن يعود...

سرت برودة شديدة في المكان، تبعها ضوء شديد اللمعان طغى على أبصارنا، وما إن هدأ حتى تشكَّلت هيئة رجل وبدأ في الظهور، ومع اختفاء الضوء نهائيًّا رأيت رجلًا بملابس بيضاء لم أَرَها في حياتي من قبل، دققت النظر في وجه الرجل ورأيت البسمة على وجهه وهو يقول:

- أبي، كم أنا سعيد برؤيتك... كم أشتاق إليك!

تهللت أساريري، حاولت السير نحوه ولكنه سرعان ما أقبل عليَّ، قبَّل يدي وأنا أقول:

- أموس، كم اشتقت إليك، أهلًا بعودتك إلى بيتك.

****

هندمت ملابسي قبل أن أطرق باب منزل نادية، وما هي إلا لحظات حتى فتحت، بابتسامتها المعهودة:

- "مواعيدك مظبوطة... كأنك ظابط".

أعطيتها باقة الورد والبشاشة على وجهي:

- "كل سنة وأنتي طيبة، مش النهاردة عيد ميلادك"؟

وضعت يديها على فمها، وأطلقت شهقة تدل على عدم تخيُّلها لما يحدث، لم تستوعب ما فعلته، لم تعرف ماذا تفعل فالذهول كان أكثر ما يسيطر عليها، سكتت بُرهةً ثم قالت بسعادة:

- "شكرًا على الورد، بس أنت عرفت إزاي؟!

- ظابط شرطة بقَى".

لم تعرف بماذا تجيب فاحمرَّ وجهها لثَوَانٍ، وهي تقول وقد شعرت بفرحة تحاول إخفاءها:

- "ثانية واحدة هاجيب الشنطة وننزل بسرعة.

- خُدِي وقتك".

لَمْ تَمْضِ لحظات حتى جاءت ترتدي أبهى الثياب، وصلنا للسيارة وبحركة دراماتيكيَّة في محاولة للتقرب فتحت لها باب السيَّارة، وأنا أدعوها للجلوس، ردت مبتسمةً:

- "إيه الذوق ده كله... شكلي هغيَّر رأيي عن الظباط".

ثم ضحكت ضحكة خفيفة وهي تجلس، أغلقت الباب ثم ركبت السيَّارة، ظلت الابتسامة على وجهي وقلت في محاولة لامتصاص صدمتها والتقرب أكثر:

- "يا رب تكوني بتحبي الورد".

أومأت برأسها إيجابًا وهي لا تزال ممسكة بالورد.

- "طبعًا بحبه، ذوقك يجنّن.
- أنا مبسوط جدًّا أنَّه عجبك".

نظرت إليَّ نظرة امتنان وهي تقول:

- "متشكرة جدًّا، أنا نفسي كنت ناسية أن النهاردة عيد ميلادي".

فابتسمت وأنا أقول:

- "طب الحمد لله يعني كدة أنا أول واحد أجيبلك هدية".

ضحكت من قلبها وقالت:

- "والأخير وحياتك".

ثم أسرعت في محاولة لتماسك أعصابها وقالت باسمةً:

- "هنتعشَّى فين النهاردة؟
- في مطعم إيطالي هايل، إن شاء الله يعجبك.
- يلَّا بينا".

لَمْ تّمْضِ أكثر من نصف ساعة وكنا جالسين في المطعم المطل على النيل، وقد شارفت الشمس على الغروب، بدأت نسمات الليل في الانطلاق مما بث في نفسي سعادة جعلتني أستعيد حيويتي، نظرت إليها متأملًا جمالها، لم أدرك أن ابتسامتها تأخذني لبعيد، تتراقص الكلمات على الأنغام، ويكون قوامها هو كل ما تراه عيني... لم أُفِقْ إلَّا على سؤالها لي:

- "صحيح عرفت إزاي أن النهاردة عيد ميلادي"؟

قهقهت ضاحكًا وأنا أقول:

- "من البطاقة وأنا بجبها من أمن البنك.

وبلا مقدمات انفتح قلبي لها، وجدت نفسي أقول في رومانسية:

- "بحس بفرحة كبيرة معاكي".

بدَا الخجل على وجهها، سكتت عن الكلام؛ مما جعلني أستمر، فأكملت حديثي مستفسرًا:

- "أكيد بتسألي نفسك، يا ترى هو متجوِّز ولَّا لأ، راجل في نص التلاتين أحواله إيه".

رأيت الشغف يظهر على وجهها، فلم تستطع إخفاءه؛ مما ساعدني على أن أكمل حديثي حاكيًا:

- "من سنتين كنت متجوز واحدة رقيقة، وهادية، وأنتي عارفة طبيعة شغلنا، بتأخَّر كتير وممكن بالأيام مرجعش البيت، بس هي مستحملتش الحياة دي كانت صعبة عليها".

اعتدلت في جلستي وقد رجعت بالذاكرة للوراء لأمور قد مضى عليها الزمن، أكملت حديثي:

- "اتطلقنا، بصراحة كان عندها حق، شُغلَانتنا دي صعبة ومحدِّش يستحملها".

تعاطفت معي وبَدَا الإشفاق على وجهها، وهي تقول مواسيةً:

- "ومين فينا شغله مش بياخد كل وقته، كان لازم تقدِّر ده كويس وتتحمل".

ثم فاجأتني قائلة:

- "لو بتحبك كانت استحملتك. الطلاق كان هيحصل كدة كدة، فمش عايزاك تزعل، هي مكنتش بتحبك"..

أعجبني ما تقول، فقد هوَّن عليَّ شعوري بالذنب، فابتسمت ابتسامة توحي بتفهُّمي، شكرتها، ثم قلت:

- "هي اليومين دول هتتخطب، لسة عارف من يومين.

- طيب يا سيدي زي مانا قلت".

جاء دوري لسؤالها، وبطريقةٍ ودودةٍ سألت:

- "في عنيكي دايمًا لمسة حزنٍ، يا ترى ليه"؟

بدا الشحوب على وجهها، شعرت بآلامها تخرج من صوتها حاكية:

- "وأنا صغيرة، لما أسمع بابا وماما بيتخانقوا كتير كنت أروح أجري بسرعة، أستخبى ورا باب الأوضة وأفضل أعيَّط من الخوف".

رفعت رأسها ثم نظرت إليَّ قبل أن تكمل:

- "وفي يوم سمعت باب الشقة يتهبد جامد وبعديها ماما فضلت تعيط كتير... ومع مرور الوقت عرفت أن بابا اتجوِّز واحدة تانية".

نزلت قطرات الدموع من عينيها ببطء وهي تسترجع لحظات أليمة في حياتها؛ ولكنها لم تتوقف عن الكلام وقالت:

- "فضلت في البيت أنا وماما وأخويا، لحد ما هو سافر بَرَّة. قررت ساعتها أن مفيش راجل في الدنيا يستاهل أعيش معاه، اهتمامي هيكون في شُغْلي ومامتي بس. وخصوصًا زي مانْتَ عارف هي عندها السرطان".

ثم توقفت عن الكلام، أخذت ثواني تنفث عن نفسها، وكأنها تحاول نسيان الفترة الماضية، نظرت إليَّ وهي تمسح دموعها والضعف واضح في صوتها:

- "أنا مش عارفة إزاي حكّتلك كل ده"!

ابتسمت، أمسكت يديها برفق، قلت مطمئنًا:

- "باباكي ده راجل مريض، متحكميش على الرجَّالة كلهم من خلاله".

توقفت للحظة قبل أن أقول من كل قلبي:

- "نادية، إنتي مش عارفة مصارحتك دي بالنسبالي عاملة إيه، وتأكدي إني جنبك لو عايزة حاجة.

- يا رب متكنش زي باقي الرجالة وخصوصًا أنك مطلق، دي أكتر حاجة خوِّفتني".

فأومأت برأسي مُتفهِّمًا، واعتبرت أن كلامها هو البداية، ويجب عليَّ بذل مزيد من الجهد لنيل حبها.

تذكرت أننا لم نطلب ما نأكله فضحكت، ثم اختارت طبقًا صغيرًا، وكان الطعام من أشهى الأنواع التي تذوقتها إن لم يكن الأشهى.

****

أغمضت عيني من شدة التعب، فما حدث في الأيام الماضية كان ثقيلًا، منذ أن قررت إبلاغ الشُّرْطَة، ثم مهاجمتهم لمنزلي وأخذي لأمن الدولة التي كانت من أصعب لحظات حياتي، حتى مقابلتي للضابط أحمد.

أسيصدقني؟ ولمَا لا!! فالفيديو حقيقي، لا مجال للشك. ارتميت على السرير من شدة الإنهاك، نظرت لصورة ابني وزوجي الموضوعة جواري، دمعت عيناي قليلًا وأنا أقول باكية:

- "هشوفكوا إمتى"؟

قطع تفكيري رنينُ الهاتف، نظرت إلى الرقم لأجده من مجهول، ترددت لحظات قبل أن أجيب:

- "ألو، مين معايا"؟

وفي سرعة جاء الرد:

- "آنسَة مريم، أنا الظابط أحمد، يا ترى لسة فاكراني"؟

جاء سؤال الدكتور حسن كالصاعقة، فلم يَدُرْ بخلدي معرفته لما حدث، لا أستطيع البوح بالحقيقة، فقلت مخادعًا:

- "أنت قصدك الظابط أحمد"؟

فرَدَّ باقتضاب:

- "معرفش اسمه إيه، بس الدكتور عثمان شافوا معاك وبعد كدة خرجتوا سوا. لو عامل مشكلة قولي.

حاولت الابتسام وأنا أقول:

- "لا مفيش حاجة، ده زميل في المدرسة وهو لما شافني افتكرني، وخرجنا بَرَّة نشرب قهوة في أي مكان ونفتكر أيام الطفولة.

شعرت بعدم اقتناعه ولكنه أجاب:

- "بس كدة؟

- بس كدة".

ثم استأذنته في الانصراف لتكملة عملي، وحمدت الله على هذه الفكرة الطارئة بعد أن علمت كيف عرف.

وما إن دخلت معملي حتى هُرِعْت أنظر في الشاشة التي أعددتها لإرسال الرسالة، ولكن بلا جدوى، لم يأتني الرد، حاولت مرة أخرى، لم يحدث أي تغيير، مما أصابني بالإحباط.

أعلنت فشل التجربة، ظللت في معملي إلى أن حلَّ الظلام، وظل السؤال كما هو كيف سنصل إليه، لا بد من أن ألقي بالطُّعْم، حتى أستطيع معرفة المزيد. فكرت في استثارته برسالة أخرى فأرسلت:

- "عندي إللي أنت بتدوَّر عليه".

حبست أنفاسي وبدأت الرعشة تسري في رِجْلي وأنا أتمنى حدوث أي تغيير.

فجأةً ظهرت بعض الترددات غير المفهومة وما هي إلا ثوانٍ حتى اختفت. حاولت تتبُّعها، معرفة مصدرها، لم أقدر على ذلك فإمكاناتي هنا لا تسمح بذلك.

رَنَّ هاتفي لأجد الضابط أحمد يُهاتفُنِي، فأجبت مداعبًا:

- "الحالة المرة دي إيه اختفاء ولَّا حاجة مختلفة"؟

بدَا الانقباض على صوته وهو يجيب باقتضاب مُتجاهلًا ما أقوله:

- "عايزك بكرة في المكتب، من بدري عندنا اجتماع مهم".

تسمرت في مكاني فصوته لم يُرِحْني، لم أجد ما أقوله سوى:

- "من النجمة هكون عندك".

تُرَى ما الذي جَدَّ، وأي اجتماع سأحضره؟!!

****

حقًّا إن الحب هو أكبر ألغاز الكون، لن تستطيع أبدًا أن تفهمه، فهَا أَنا أهيم عشقًا من اللحظات الأولى، تركت عواطفي تنعطف بي إلى طرق قد أغلقتها، وبلا إرادة أمسكت هاتفي واتصلت بنادية وما إن ردت، حتى قلت مداعبًا:

- "حبيت أطمِّن أنك وصلتي البيت كويس".

ضحكت قائلة:

- "والله فيك الخير... أنا لسة فاتحة باب الشقة، الحمد لله السلالم كانت خفيفة.

- مع إني حاسس إني كنت معاكي من فترة كبيرة.

أدركَتْ بفطنتها ما يحدث معي، فحاولت تغيير الكلام في اتجاه آخر وقالت:

- "شوف إحنا متكلِّمناش في الشغل، مع أن كان في حاجة مهمة حصلت عايزة أحكيهالك".

أعجبني ذكاؤها، لم أكن أريد التحدث في العمل؛ لكن بقائي معها على الهاتف جعلني أندمج وأنتهزها فرصة لمواصلة الحديث.

فسألتُها باسمًا:

- "احكيلي عليها أنا في العربية والطريق لسة طويل.

- من خلال ورق البردي لاحظت اهتمامه بمكانين، الأول معبد "پتاح" وده مشهور بعبادة الإله "پتاح" ودراسة السحر... وكان في رسم على الأعمدة عبارة عن مكعب وفي النُّصّ زهرة اللوتس، نفس شكل المكعب في خزنة البروفيسور مارك.

فأومأت رأسي مُتفهمًا وتساءَلت:

- "يا ترى هو كان مهتم بالمكان ولّا السحر إللي كان بيدرس فيه".

ردَّتْ بلا اهتمام:

- "مقدرش أحدِّد، بس المكان ده متخصص في دراسة سحر الإخفاء والتحريك عن بُعد".

صدمني قولها، أخذت بُرهة في التفكير قبل أن أشرح لها ما حدث في الصباح قائلًا:

- "الصبح في حاجة غريبة حصلت، من غير تفاصيل إحنا شاكِّين في أنها تكون حالة اختفاء أو...

أكملت وأنا لا أدري ما أقول:

- أو انتقال عبر الزمن.

ساد الصمت للحظات، وهي غير مستوعبة ما أقوله، فبادرت بسؤالها:

- "أنتي قولتي مكانين... إيه هو المكان التاني"؟

فأجابت:

- "مسجد النبي دانيال في إسكندرية، بس لسَّة مش عارفة السبب إيه".

تراجعت إلى الخلف، أخذت نَفَسًا عميقًا قبل أن أجيب:

- "كدة لازم نكوِّن فريق كبير، عقل واحد مش كفاية".

****

لم أستطع النوم، فبعد مكالمة الضابط أحمد لي وأنا أكاد أُجَنّ، تُرى هل إعادة الفيديو الذي أعطيته إياه هي السبب؟؟ هل صدق كلامي؟!، ظللت أفكر إلى أن غلبني النوم، وما إن بدأت أشعَّة الشمس في الدخول إلى غرفتي حتى استيقظت، ذهبت إلى الحمَّام، ارتديت ملابسي في سرعة، ثم خرجت من المنزل.

اتجهت مباشرة إلى مكتبه، استقبلني موظف الاستقبال بابتسامةٍ وَدُودَةٍ، فقلت وقد بَدَا التوتر واضحًا على صوتي:

- "عندي معاد مع الظابط أحمد علي، هو قال إن اسمي هيكون متسجِّل عندك".

رد والابتسامة لا تزال على وجهه:

- أتشرف باسم سيادتك.

- مريم أسامة".

أخذ يبحث في الحاسب الآليّ للحظات ثم قال:

- "تمام، الدور التاني تالت مكتب على اليمين".

شكرته، ثم ذهبت للمصعد، وأنا أحاول أن أتمالك أعصابي أكثر، مضت دقائق معدودة حتى وصلت للغُرْفَة، طرقت الباب، سمعت بعض الهمهمات، فظننت بأنها إشارة سماح لي بالدخول، وما إن فعلت حتى رأيت امرأة في مثل عمري وقد بدت في أبهى زينة، ورجلًا ضخمًا يبرز كَرِشُه الكبير بشكل ملفت للنظر، وقد تبقَّى كرسيان خاليان أحدهما بجوار السيدة، والآخر على رأس الطاولة، فذهبت إلى الكرسي بجوار السيدة وأنا أقول:

- "صباح الخير، مريم أسامة".

فوقف الرجل، مد يديه لمصافحتي بابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- "زياد الدين، دكتور ومتخصص في دراسة العقل البشري".

ثم أكمل بلباقة وفي محاولة لكسر التوتر:

- "بس شكلك مش دكتورة، يا ترَى أنتي بتشتغلي"؟

أجبت وأنا ما زلت لا أعلم ماذا أفعل هنا:

- "خبيرة كمبيوتر".

ثم نظرت إلى الآنسة، فردَّت بابتسامة ودودة:

- "نادية إبراهيم عالمة آثار، متخصصة في الحضارة الفرعونيَّة".

ساد الصمت للحظات وأنا أحاول ربط الأشياء ببعضها، ما علاقتي بكل هذا؟

دخل الضابط أحمد، ألقى السلام ثم جلس على رأس الطاولة، ظل ينظر إلينا، وكأنه يتلذذ برؤية الإبهام على وجوهنا، ثم قال:

- طبعًا أنتوا كلكوا عارفيني، بس أنتوا متعرفوش بعض. وده بيفسر نظرة القلق والشك واضحة على وشكم، أظن أنكوا في العشر دقايق إللي فاتت اتعرفتوا على بعض، يبقى نخُش في المهم".

لم يعلق أحد على ما قاله، وكان بجواره شاشة عرض كبيرة، ضغط على زر التشغيل، فظهرت صورة مُكبَّرة على الحائط لرجل مقتول، وقال شارحًا:

- "في الأسابيع الأخيرة ظهرت أحداث غريبة، كل واحد منكم شارك فيها على حسب تخصصه".

أشار إلى الصورة وهو يقول مفسرًا:

- "البروفيسور مارك فيكتور، خبير في علم الفراعنة، مات مقتولًا في شقته".

أشار بيديه لنادية وأكمل:

- "الآنسة نادية ساعدتني في جمع المعلومات عنه، هقولهالكم بسرعة، البروفيسور كان بيدوَّر على حاجة معينة في معبد "بتاح" وده معبد

فرعوني موجود في كوم أمبو. والآنسة نادية شغَّالة على الموضوع، دورها أنها تعرف إيه إللي بيدوَّر عليه وليه"؟

ثم ضغط على زر في الحاسوب لتظهر لنا صورة أخرى لرجل يرقد في المشفى، نظر إلى زياد قبل أن يقول:

- "ده شَغَّال في بنك وحالته ما كانتش طبيعيَّة كان بيقول أرقام غريبة وكلام هيروغليفي".

الدكتور زياد كان ماسك حالته، وبيستنتج أنَّه تم اختراق عقله بغرض جمع المعلومات، ومع الوقت عرفنا أن الأرقام دي كانت حساب البروفيسور إللي مات".

عاود الضغط مرة أخرى ليظهر لنا الفيلم الذي سجلته، وقد ظل صامتاً يتركنا نشاهده.. وبعد أن انتهى قال:

- "الفيديو ده اتصور بالصُّدْفة عن طريق خبيرة الكمبيوتر مريم، عرضته على الدكتور زياد وبصراحة رأيه صدمني، أتمنى أنَّه يعرض نظريته عليكم".

اعتدل الدكتور زياد في جلسته، فهو لم يتوقع أن يُطلب منه ذلك، بدأ في شرح الحقائق العلمية، وقد بَدَا الذهول على وجوهنا، إلى أن وصل إلى آخر نقطة، وهي أن الرجل سافر عبر الزمن.

وهنا لم يقدر أحد منا على النطق بكلمة، ظلت عقولنا تحاول استيعاب ما يحدث من خيالات نسمعها، إلى أن قال الضابط أحمد:

- "مفيش حاجة واضحة قدامنا، بس ده خيط ممكن نبدأ منه، عشان كدة قررت تكوين الفريق العملي لحل القضية".

سكت قليلًا ثم قال:

- "دي كلها استنتاجات وتحاليل مبدئية، أنا مقدرش أفرض عليكم المشاركة، عشان إللي بعد كدة هيكون أصعب.

انتظر للحظات ثم وقف وقال ناهضًا:

- "هسيبكوا تتكلموا وتاخدوا قرار، من حق كل واحد فيكم الرفض أو القبول".

ثم نهض وتركنا وسط ذهولنا.

****

جلست إلى المائدة، أمام أبي الكاهن الأعظم "حم نتر". نظر إليَّ والفرحة تملأ وجهه بعودتي، لاحظت شغفه بمعرفة أخباري، فبدأت الحديث في محاولة للتقرب منه وقلت بحماسة:

- كم اشتقت لهذا الطعام، ففي المستقبل لا يوجد شيء كهذا، فالتلوث والتكنولوجيا أصابا كل شيء، وأصبحت الحياة تسير بسرعة لن يقدر أبرع الرجال عندنا على تخيُّلها أو مجاراتها.

ظهر التعجب على ملامح أبي، وعدم الفهم لما أقول، فضحكت مكملًا حديثي:

- لا تتعجب يا أبتِ، فسأقص عليك كل شيء وأنا أثق في قدرتك على التفهُّم.

نظر أبي إليَّ وهو يقول في محاولة لفتح عقله:

- إذن فقد استطعت الذهاب إلى المستقبل، ورؤية ما سيحدث؟

نظرت إليه، أعلم ما يدور في ذهنه، فأجبت:

- نعم، لقد سافرت لبعيد، رأيت حضارات تزدهر وتنطفئ، وتيرة الحياة تتسارع أكثر فأكثر، ذهبت إلى أكثر من سبعة آلاف عام مستقبلية.. وهناك سأجد ضالَّتي.

رمقني وهو لا يستوعب ما أقول فساءلني متشوقًا:

- أتعرف مصيرنا؟

توقعت منه السؤال، وكنت مستعدًّا للإجابة فانطلقت أبوح بها:

- ستنتهي حضارتنا إلى الأبد، على يد الإسكندر الأكبر، لن تكون للحضارة الفرعونيَّة نهضة مرة أخرى، وستتوالى الحروب من جميع بلدان العالم لنهب خيراتنا، والبحث عن آثارنا، والاتِّجار بأمواتنا، سينسى التاريخ كل شيء عنَّا، ويأتي أحفادنا للضحك علينا، والنبش في أرضنا أملًا في إيجاد شيء من بقايانا تنفعه لبيعها، وتحقيق الثراء به.

شحب وجه أبي، بَدَا الحزن عليه، أعلم كم هو يحب بلاده، ولا يخطر في ذهنه بأن حضارته ستنطفئ.

رأيت كل هذه المعاني في دموع عينيه، تركت طعامي، ثم جثوت على ركبتيَّ أمامه، أمسكت يديه وقلت مطمئنًا:

- لا تحزن يا أبي، لقد رأيت المستقبل، ولديَّ خطة لتغييره...

نظر إليَّ نظرة متسائلة، فأكملت:

إن هذا الرجل الإسكندر الأكبر، يمتلك في حوزته قوة سحرية، وهي ما تساعده على هذه الانتصارات، لقد اقتربت من إيجادها، وما إن تصبح ملكي حتى أعود وسأنتصر عليه، وسنغير التاريخ معًا.

رأيت الدموع تلامس خده، مسح بيديه على رأسي وقال بصوتٍ باكٍ:

- لا أحد يستطيع تغيير المستقبل يا بُني،... فنحن نسير بإرادة الإله.

قاطعته معترضًا:

- إله... أتسمِّي تلك الأحجار التي تزين الجدران آلهة؟!

وقفت وأنا أقول ضاحكًا:

- تلك الأحجار ستكون مزارًا لأناسٍ لا يعلمون عنها شيئًا، ستظهر ديانات جديدة، وآلهة جدد، ستظل لعبة الدين هي المحرك الأكبر لكل ملك سيأتي، ثم يأتي التوحيد، وسيجتمع كل أحفادنا على عبادة إله واحد..

لقد آمنت بعدم وجودها فهي خدعة نضحك بها على الشعب، وسيفعل أحفادنا كذلك مع اختلاف الظروف.

فرَدَّ علي أملًا في الرجوع إلى الحق:
- احذر ممَّا تقول فأنت لن تتحمل غضبها.
أصابتني هستيريا الجنون وقلت مستهزئًا:
- غضبها، إني لا أؤمن بوجودها، فكيف ستؤذيني؟
توقفت للحظات قبل أن أكمل بلهجة صارمة:
- لن يوقفني أحد عمَّا أريد، وسأسترجع بلادي، سأضع أُسسًا جديدة لحمايتها، وضمان استمرارها.
جلست إلى رأس المائدة وبنبرة عالية صحت:
- لن نترك حضارتنا تندثر، فنحن الأقوى، فما لدينا من علم لم يتوصلوا إليه في المستقبل، بل سيزداد الجهل في البلاد، سينتشر الفساد بين الناس، ونصبح أضحوكة العالم، لن أدَع هذا يحدث. فقد اقتربت من النهاية.
رفع أبي رأسه لأعلى وقال داعيًا:
- أسأل الرب إعادتك للصواب، لقد جُننتَ وتخطيتَ الخطوط الحمراء، أصبحت مجنونًا.
فجثوتُ مرة أخرى، وقلت مُتوسِّلًا:
- أبي لقد اقتربت، فما أريده الآن أحد الرجال يساعدني فيما سأفعله، وسأعود ومعي خوذة الانتصار.
نهض أبي غاضبًا، رمقني بنظرة عتاب، ثم تركني معترضًا:

- لن تتعلم أبدًا، افعل ما يحلو لك، سأبقى هنا أدافع عن وطني، وآلهتي التي لن تخذلني أبدًا.
ثم ابتعد وتركني خلفه كنت أعلم أن هذا سيحدث، فهو لم يرَ ما رأيت، لم يسمع ما سمعت، أعذره في ذلك، ولكن عندما أعود منتصرًا، سيتفهَّم، وسيفتخر بما أفعله.

****

خيَّم الصمت على المكان، فالكل كان يحاول استيعاب ما قاله الضابط أحمد، ففكرة السفر عبر الأزمان ليست بالأمر السهل استيعابه، ورغم كل ما سمعته من مُهاترات، فإن الفكرة أعجبتني.
كنت أول من استوعب الموقف فقلت مُتحيِّرة:
- "الاختيار صعب.
رد عليَّ الدكتور زياد، وقد كان أكثر المتحمسين:
- "بس دي فرصة مش هتتكرر... في كتير بيعيشوا حياتهم يدوَّروا على فرصة لفهم ما وراء الطبيعة، وأنا الفرصة جت لحد عندي".
قاطعته نادية متشككةً:
- "السحر الفرعوني سحر قوي صحيح أنا مش بعترف، لكن كل الأساطير بتتكلم عن قوته، لو تحديته هيكون أمر صعب، ممكن يدمرنا كلنا.

كل الأمور والثوابت العقلية تؤكد أن الخوض في ذلك هو الجنون، لكن قلبي تعلق به، ويحثني على الاستمرار، فقلت:

- "بحاول أرفض، بس الفضول وشغف المعرفة بياكلني".

أخذت نَفَسًا عميقًا ثم زفرته لأمحو كل التوتر، ثم قلت لطمأنة نفسي:

- "هأكمل الطريق، مش هخاف، كدة كدة حياتي ملهاش طعم".

صفق زياد بحرارة، نهض من مقعده وبلا تردد أجاب:

- "زي ماقُلْتي...الفضول... أنا معاكي".

لم يتبقَّ إلا نادية فاتجهت أنظارنا نحوها، بَدَا التوتر على وجهها؛ لكنها قالت:

- "خايفة مش عارفة ليه، حماستكوا والشجاعة في عيونكم أقوى من خوفي ميت مرة".

نهضت نادية وقالت بصوتٍ تتملَّكه الشجاعة:

- "أنا معاكوا".

تهللت أساريرنا، وتعالت صيحات الفرحة من زياد، فطبيعته المرحة والمقبلة على الحياة هي ما نحتاجه الآن.

لَمْ تَمْضِ دقائق معدودة، حتى عاد الضابط أحمد إلى الغُرْفَة، جلس الجميع مُنصتين إليه:

- "بفكركوا تاني دي حرية شخصية، وسأ"...

فقاطعه زياد قائلًا:

- "كلنا معاك".

اطمأنَّ قلبه، وظهرت الابتسامة على وجهه، ثم قال بجِدِّية خفيفة:

- "بس أنا لازم أسمعها من كل واحد، فنظر إليَّ:

فأجبت:

- "معاك، زهقت من مراقبة ناس عادية، عايزة تجديد".

فشكرني ثم نظر إلى نادية قائلًا:

- "وأنتي" ؟

فأجابت:

- "أنا معاك في أي حتة".

فهتف والفرحة تملؤه:

- "هايل كدة ممكن نبتدي.

****

لم نشعر بالوقت وهو يجرفنا إلى الأمام، نحن جالسون، نراجع الأحداث ونعيد ترتيبها، نستخرج النتائج، تعبنا كثيرًا استرحنا قليلًا ولكن الشغف والمتعة كانا سيدي المكان.

وبعد أن انتهينا من تجميع النتائج وتكوين فكرة عامة عمَّا حدث سألنا أحمد:

- "رأيكوا إيه في الخطوة الجاية"؟

فقال الدكتور زياد وقد بَدَا الجوع يتسلل إليه، فأمسك كرشه وقال ضاحكًا:

- "لازم ناكل عشان كدة هنموت".

ضحك أحمد ورد عليه:

- "لِحقْت تجوع! داحنا لسة واكلين من ساعتين تلاتة".

ثم أمسك بهاتف الغُرْفَة وطلب إحضار مزيد من الطعام؛ شكره زياد:

- "فكرة السفر عبر الزمن أخدت كل عقلي، وبعد التجربتين، لازم أركز على الموجات والترددت، هي دي أساس التكنولوجيا بتاعته.

فرَدَّ أحمد متحمسًا:

- "هايل، بُكرة هيكون في معمل مجهز بكل حاجة، أنا متأكد أنَّه هيعجبك.

ثم نظر إليَّ وهو يقول:

- "وأنا قدرت أطلعلك تصريح، باستخدام القمر الصناعي، لازم نعرف الراجل ده فين وبيفكر في إيه".

بدت الفرحة على وجهي فقلت مازحةً:

- "أكيد هاستمتع بالعمل، أول حاجة هاعمل قناة مشفَّرة بِينًّا صوت وصورة تخلِّينا نقدر نتكلم من أي مكان".

ثم نظر إلى نادية، فقالت بهدوء وبعد تفكير:

- "البروفيسور مارك راح معبد پتاح، بافكَّر أروح هناك، أكيد هلاقي خيط أبتدي منه".
فقال أحمد:
- "بكرة الصبح عربية بالحرس هتكون تحت أمرك.
ثم أراح جسده للخلف وقال:
- "دوري أنا هو الحفاظ على سلامتكم ومساعدتكم في أي مشكلة بتواجهوها".
قالت "نادية" مترددةً:
- "ممكن نعيد الفيديو مرة أخيرة؟
عرضه أحمد مرة أخرى، وما إن ظهر الرجل بصورة واضحة حتى قالت نادية:
- "وقَّف الصورة هنا".
قامت نادية من مكانها، حدَّقت في الشاشة للحظات، ثم قالت شارحةً:
- "الفراعنة كانوا طوال القامة في العصور الأولى، ومع مرور الوقت، ماكنش الطول بيميزهم".
ثم تابعت قائلة:
- "لو دُول فراعنة والراجل ده مش طويل نسبيًّا،...أنا أعرف من أي عصر جاء... طوله يؤكد أنَّه من العصور الأخيرة.

فتساءَلت متوترةً:

- "وده يفيدنا في إيه"؟

فرَدَّ الضابط "أحمد " قائلًا:

- "إن معرفة زمن ومكان العدو دي بداية خيط قوية".

فلاذ الجميع بالصمت... فمن الواضح أن اللعبة بدأت الآن.

****

الفصل الخامس

«النمل إذا اجتمع، انتصر على السَّبْع».

سعدي الشيرازي

أطلت النظر إلى معبد "بتاح" من داخل السيَّارة التي أرسلها لي أحمد، بصحبة اثنين من الضُّبَّاط، تذكرت رحلات الجامعة، وذهبنا لمشاهدة المعابد، وكان معبد "بتاح" من ضمنها.

لم أتخيل عودتي إليه مرة أخرى، فلم يكن من المعابد المهمة، ولولا الإله بتاح أقدم الآلهة الفرعونيَّة، لما تذكَّره أحد..

لم يكن هناك أي نوع من أنواع القيود على المعبد، فهو يُعدُّ من المعابد المهجورة، والتي تحتاج إلى ترميم لإعادتها مرة أخرى للحياة.

توجهت مباشرة إلى الجانب الشرقي، وكان مخصصًا للمعبود "سوبك"، بالساحة الواسعة، والممرات التي تتوسطها العواميد الباهظة، تزينها الرُّسُوم، دققت النظر إلى أن رأيت المكعب، وقد كان طِبْق الأصل للمكعب، وضعت يدي في حقيبة اليد وأخرجت المكعب، ثم قارنته بالرسم؛ أملًا في معرفة أي شيء يقودني إلى الخيط، لكن بلا جدوى فلم أجد علاقة بينهما.

ظللت أتجول في باقي المعبد أنظر، إلى بقاياه، أحزنني المنظر فكثير منه تحطم، ولم يتبقَّ إلا بعض العواميد... المتناثرة في كل مكان، ماذا أفعل الآن؟ لا بُدَّ من العثور على خيط أبدأ منه، عاودت مراجعة

الأحداث أملًا في إيجاد شيء مهم، فلا يمكن أن يكون البروفيسور مارك أحضر هذا المكعب هباءً، فهو يبحث عن شيء.

توقفت لحظة، وأنا أتساءل تُرَى إلى أين سيقودني الطريق إذا تتبعت العواميد المنقوشة بزهرة اللوتس؟! فعاد الأمل مرة أخرى، وأنا أحاول تتبُّعه حتى أصبحت في ممر ضيق ينزل إلى أسفل المعبد، أكملت طريقي ببطء، رأيت بابًا خشبيًّا لم يكن مغلقًا بإحكام.

تأملته للحظات قبل أن أقترب منه، أزحت اللوح الخشبي، فانبعث الغبار من حوله، دفعته برفق إلى أن فُتح بسهولة، فتسللت إليه أشعَّة الشمس.

كان أمامي ممر ضيق يكفي لعبوري وحيدة، بدأت في السير لخطوات إلى أن لمحت على جانبيه غرفًا صغيرة، فعرفت بأنها غرف نوم الكهنة الصغار، أو العمال الذين كانوا يقومون على خدمة المعبد، لفت انتباهي آثار أقدام خفيفة وسط الأتربة، تتبَّعتها على ضوء الشمس المتسلل، إلى أن خفت الضوء فأخذت من حقيبتي كشافًا صغيرًا، أشعلته وعاودت تتبع آثار الأقدام.

خمَّنت أنها قد تكون أقدام البروفيسور، مما جعل الحماس يدبُّ في قلبي، فتتبعتها، وقد رأيتها وهي تتجاهل الغرف، وتكمل طريقها إلى الداخل، تناسيت ما قاله لي أحمد من عدم التوغل بدون حراسة،

انحرف وقع الأقدام يمينًا، فتبعتها، لأجد بابًا كبيرًا أمامي، مغلقًا بسلاسل قديمة، نظرت إلى الأرض فلم أجد وقع الأقدام.
الأمر الذي أزعجني، كيف اختفت ؟!

****

يا لروعة المعمل، فما به من إمكانات، ستساعدني في أداء تجاربي عن قوة العقل، حدَّقت النظر في أركانه فابتسمت عندما رأيت الثلاجة؛ توجهت نحوها وأنا أقول مازحًا:
- "أحسن حاجة أن الظابط أحمد حاسِس بكرشي".
أخذت قطعة الحلوى ثم اتجهت لمكتبي، يجب عليَّ الآن العمل بكل قوتي، والبدء فورًا، فلا يجب عليَّ أبدًا ألا أخذل الفريق، فهم من وقفوا جانبي وآمنوا بقدرتي.
فكرة الترددات الكهرومغناطيسية، سيطرت عليَّ بعد أن رأيت بعض التجارب العلمية التي تؤكد ذلك.
بدأت في تذكُّر بعض الأمور الفيزيائية البسيطة التي درسناها في المدرسة، كيف استطاع العالم "جيمس ماكسويل" وضع قوانين حركة تلك الموجات الكهرومغناطيسية، والتي أثبتها من بعده العالم "هنريك هيرتز"؟

فقد بنى دائرتين كهربائيتين غير متصلتين تعملان بنفس التردد، ليجد أنَّه عند تغذية إحداهما بتيار كهربائي، يتولد في إثرها تيار في الدائرة الأخرى، وقد ساعدت هذه الأفكار في مجالات كثيرة بدأت بالراديو إلى أن وصلنا إلى الأشعَّة السِّينيَّة التي تُستخدم لعلاج السرطان، والأشعَّة فوق البنفسجيَّة التي تُستخدم في المصابيح الشمسيَّة.

والآن أرى بعيني كيف استُخدمت في السفر عبر الزمن، ومن هنا عليَّ الانطلاق.

سأبدأ بتكوين جهاز أستطيع التحكم بالترددات الخارجة منه، وهذا شيء سهل يمكن شراؤه بسهولة، ولكني أريد إضافة بعض التعديلات بنفسي، وستكون هذه الخطوة هي الأولى في محاولة فهم كيف استفاد أجدادنا من ذلك.

ظللت أعمل في صناعة الجهاز لعدة ساعات، حتى إنني لم ألاحظ دخول مريم إلى معملي، فقالت بصوت منخفض:

- "شكل الشغل واخد تفكيرك كله، ده أنا بقالي ساعة بكحكح عشان تعرف أني موجودة".

فانتفضت من مكاني مما يدل على صدق كلامها، وأنا أقول متأسفًا:

- "آسف، فعلًا كنت مركّز والحماس واخدني".

فابتسمت وهي تقول:

- "شكلك بتحب شغلك قوي".

رددت عليها، وأنا أدعوها للجلوس:

- "أكيد، أنا مؤمن بقوة العقل جدًّا وإزاي نستفيد منه".

ثم سألتها لكسب المزيد من الود بيننا:

- "وأنتي بتحبي شغلك"؟

فهمهمت وهي تنظر للأرض:

- "هي ابتدت هواية، ودي أول مرة تكون شغل.

- قصدك مراقبة الناس؟!!

- دي ليها قصة طويلة، أكيد هحكيهالك بس وقت تاني".

لم أتبين سر وجودها، فمن الواضح أنها لا ترغب بالكلام أو فتح مواضيع شخصية، وفي الوقت نفسه لن أظل ساكتًا، فبدر بذهني أن أسألها:

- "أخبار مكتبك الجديد إيه؟، أنا سمعت أنه جنبي قوي.

- فعلًا، هو جنبك، وبصراحة قمة التكنولوجيا موجودة فيه، أنا ابتديت فعلًا في برمجة لشفرة للمكالمات وهابعتها على موبيل كل واحد لما أخلَّص.

ثم سرت همهمة بين شفتيها، فسألتها:

- "في حاجة شغلاكي أو مش عجباكي، يا ترى أقدر أساعدك"؟

فأجابت وكأن شيئًا يشغل بالها، فتحاول التفكير بصوتٍ عالٍ:

- "مش عارفة أبتدي منين، كنت زمان بشوف الهدف وبعد كدة براقبه، بس المرة دي مش كدة، أنا لازم أدوَّر على هدف معين".

ابتسمت بعد أن عرفت سبب مجيئها:

- "احكيلي لو واحد بيدوَّر على شخص يعمل إيه"؟

فرَدَّت وهي لا تفهم مغزى سؤالي:

- "هيشوف الكاميرات في الشوارع، ويراقب الملفات في أقسام الشُّرْطَة والمستشفيات، بس أنا عملت كل ده... ومفيش فايدة".

ثم سكتت وبَدَا الحزن على صوتها وهي تقول:

- "أنا خايفة الظابط أحمد يتكلم وميكونش عندي إجابة".

أدركت مدى الإحباط الذي تملَّكها، فقلت لها مُشجعًا:

- "في حاجة كنت شغَّال عليها جايز تساعدك".

بدَا الاهتمام يظهر عليها، فأكملت مستمتعًا:

- "من كام يوم حاولت أبعت رسالة، للشخص ده، بس ماردِّش... لكن في موجة غريبة أنا ممكن أحدد مكان الموجة دي.الإمكانيات في المعمل ده رهيبة".

بث كلامي الأمل فيها وهي تقول:

- "بجد"!

ابتسمت وأنا أفتح ملف التتبُّع وأوصلته بالخريطة الإلكترونيَّة، ثم بحثت عن موقعه؛ ولكن النتيجة لم تكن دقيقة، فالتردد ظهر من أحد شوارع مصر الجديدة.

فقلت بأسف:

- "مش عارف دي هتفيدك، بس ممكن تكون بداية".

لمعت عينها وقد طرأت فكرة في بالها؛ فقالت بحماس:

- "القهوة، أنا أول مرة شوفته كانت في قهوة هناك في الكُرْبة".

دب الحماس فيها، وقالت بحرارة:

- "إزاي مفكرتش كدة، ده أكيد هطلع بمعلومة من هناك".

استعادت مريم نشاطها مرة واحدة، حملت حقيبتها، وهي تقول:

- "شكرًا، أنت نبهتني لنقطة مهمة".

ثم قامت فجأةً، وذهبت مسرعة، فسألتها:

- "عايزاني معاكي"؟

ولكنها كانت قد تخطَّت الباب في سرعة؛ مما جعلني أبتسم، وقلت في ذهني، لا يستطيع أعظم الرجال تفسير ما تفعله المرأة. ضحكت ضحكة عالية ثم عاودت العمل... فقد اقتربت من إنهائه".

****

- دققت النظر مرة أخرى بحثًا عن آثار الأقدام فلم أجدها، نظرت إلى الباب حاولت فتحه فلم يستجب، يبدو على الباب أنَّه لم يُمَسَّ منذ سنين، ولا يُعقل أن يكون البروفيسور اختفى هنا.

اختفى؟!!! تذكَّرت فجأةً أن الاختفاء هو أحد ألغاز القضية، أيُعقل أن يكون البروفيسور استطاع الاختفاء هنا!

تذكَّرت المكعَّب، أخرجته من جيبي، وأنا أقول بصوت مسموع:

- "أيمكن أن يكون لهذا المكعب قوى خفية تساعد على الاختفاء"؟

انتفضت وأنا أسمع من خلفي ضحكة مجلجلة، التفتُّ لأرى رجلًا بملابس رسميَّة، وطوله يتجاوز المترين، عرفته فهو نفس الشخص الذي رأيناه في الفيلم المسجل، الرجل الفرعوني، رمقني بنظرات طويلة واضحة المغزى:

- "كلامك في حاجة صح، المكعب فيه قوى خفيَّة، بس أنتي مش عارفاها، يبقى متستحقيش المكعب يكون بين أيديكي".

تردد صدى كلماته بين أنحاء الممر وسمعت صوت خطوات وهي تقترب مني بطيئة، أمسكت بالمكعب بقوة، وأنا أتراجع إلى الخلف، في محاولة مني للسيطرة على ما تبقَّى من أعصابي، استجمعت شجاعتي وأنا أتطلَّع إليه بثبات:

- "مين قالك إني مش عارفة المكعب ده بيعمل إيه"؟

سار لبضعة أمتار محافظًا على صمته وكأنما يبحث عن الكلمات:

- "أشك، أنتي حتى متعرفيش مين أنا".

طرأت في رأسي فكرة فبُحت بها مسرعة:

- "فرعوني، ومن العصور الأخيرة جايز تكون من الأسرة التلاتين".

نطقتها بكل ما تبقَّى لي من شجاعة أملًا في إخافته، وقد أصابني النجاح، فالدهشة التي ظهرت على وجهه أمدتني بالقوة، فانتظرت خطوته القادمة، لأجده يقول متسائلًا:

- "ويا ترى عرفتوها من خزنة البروفيسور مارك، ولَّا ده ذكاء كم"؟

لم يكن هذا ما حدث؛ ولكنها فرصة لخداعه وكسب الوقت، فقلت:

- "مش بس كدة، الخزنة كان فيها حاجات كتير، شكلك متعرفهاش".

جحظت عيناه ونبتت منها شرارة الرعب، استمر لدقيقة يحدِّق فيَّ وكأنه يحاول قراءة أفكاري، لم أتحرك رسمت البسمة على وجهي، إلى أن قال:

- "أنا ساعدت البروفيسور كتير، خدعته لحد ما وصَّلني للمكعب والعصا الخفيَّة، وأول لما عرف سرهم وقوتهم، هرب وخبَّاهم مني، عشان كدة قتلته، زي ما هقتلك حالًا".

ارتعدت فرائصي، وأنا أحاول تمالُك نفسي، فقد تذكرت عن قراءتي للعصا التي يستخدمها الكهنة للتنقل والاختفاء، فاستنتجت من كلامه

أنها معه، فأخذها من البروفيسور بعد مقتله، وهو الآن يحاول أخذ المكعب ليتمكن من استكمال مفاتيح القوة.

فقلت له في محاولة للتأكد من شكوكي:

- "وأنت هنا عشان المكعب، فمن غيره العصا مش هتفيد".

فَرَدَّ عليَّ في حزم:

- "أنتي كدة عارفة كل حاجة، شكل البروفيسور زود في الكتابة".

ثم توقف فجأةً، وكأنه يزن الأمور قبل أن يقول:

- "إيه رأيك نلعب على المكشوف، أخبار خوذة الإسكندر الأكبر إيه"؟

فاندهشت، ما علاقة الإسكندر الأكبر بالعصا، وقد بَدَا على وجهي عدم الفهم. وقد لاحظ هذا، ظهر الغضب عليه، وأدرك تسرعه وهو يقول:

- "يعني أنتي متعرفيش حاجة لسة"؟

ثم انقضَّ عليَّ فجأةً، حاولت الإفلات منه، فلم أقدر، فقبضتُه كانت من القوة بحيث لم أتحملها، إلى أن أوقعني، أخذت أنبش بيدي في الأرض حتى أمسكت بصخرة صغيرة، ضربته على رأسه دون تفكير، فتركني، بدأت في الصراخ المتواصل حتى سمعت صوت الضابط يأتي مُسرعًا، وهو ينادي عليَّ مما جعل الفرعون يقول:

- "الكلام بيننًا لسة مخلصش، هاتي المكعب ونكمل بعدين".

أخرج مسدسًا من جيبه وهو يصوبه علي؛ لكن الضابط رآه فأطلق هو الآخر طلقة رجت أنحاء المكان، أصابت الفرعون في ساقه من الخلف، فسقط جواري، وبكل قوة ضربني على رأسي ضربة كانت أقوى مما يستطيع جسدي تحمله، سَرَت رجفة قوية في رأسي أصابتني بدُوار شديد قذفتني في غياب اللاوعي، لمحته يخطف المكعب من يدي، ويرتل بعض التعاويذ قبل أن يختفي.

****

قضمت آخر قطعة من البيتزا وأنا أطبطب على كرشي، أنظر في ساعتي، فتعجبت من مرور الوقت سريعًا، لقد مر أكثر من خمس ساعات متواصلة، وأنا أعمل على الجهاز الجديد.

تذكَّرت مريم، فلم يصلني أي خبر لها، أمسكت بهاتفي، اتصلت بها فردَّت مسرعة:

- "ألو، في حاجة ولَّا إيه"؟

ضحكت من قلقها وأكملت:

- "لأ خالص... أنا قلت أطمّن عليكي... وصلتي لحاجة في القهوة"؟

ظهر عليها الارتياح وهي تقول:

- "سألت الناس على الراجل ده وطلعوا عارفينه... بييجي كل شوية يشرب ميَّة ويمشي".

تعجبت من كلامها، وقلت مُبتسمًا:

- "يشرب ميَّة هو سمكة"...!

وفجأةً طرأت فكرة في رأسي، لماذا يشرب المياه، ألهذا علاقة بسفره عبر الزمن، لا شك بأن المياه صحية وتساعد على الحفاظ على حيوية الجسد، ولكن...

- "زياد أنت سامعني رحت فين"؟

انتبهت لصوت نادية، فقلت:

- "آسف بس سرحت في حاجة، إيه رأيك نتغدَى سَوَا؟ أنتي فين؟

- أنا في الكافيه مِستنّيِاه يظهر في أي وقت.

- خلاص أنا جايلك".

ثم أغلقت الهاتف، وفكرة واحدة تسيطر عليَّ أن المياه لا تعيق وصول الترددات، وتحافظ على الجسد، لا بُدَّ من اكتشاف سر شربه للماء.

****

رأيت المكعب بين يديها، فأخذته وما إن لمحت الضابط حتى بدأت في ترتيل تعويذة الاختفاء.

ثم ظهرت في بيتي، كاد الألم يصيبني بالجنون، فالرصاصة اخترقت عظامي، بدأت أعرج إلى المطبخ، أمسكت بالسكِّين، وضعتها على

النار، وأنا أتصبب عرقًا، حرارتي بدأت في الارتفاع، قاومت الدوران في رأسي وأنا أسكب بعض الكحول على الجرح لتطهيره.

آه على الألم، كم هو لا يحتمل!، وضعت فوطة صغيرة على فمي، فالألم سيزداد عند إخراجي للرصاصة، حبست أنفاسي وأنا أُخرجها، شعرت بأن جسدي يتفتت من الوجع. ها هو الجزء السهل انتهى، بقي الجزء الأصعب وهو تطهير الجرح، بالسكين الساخنة.

وما إن وضعتها حتى شعرت بقلبي يتوقف، اسودَّت الدنيا أمامي وذهبت في غيبوبة عميقة.

****

حاولت فتح عيني بصعوبة، هل من شدة الضوء، أم من الصداع في رأسي، محاولة فالأخرى بدأ التركيز يصل إلى عقلي، لأجد نفسي في غُرْفَة مشفى، ثم سمعت صوتًا يقول برِقَّة:

- "حمد لله على سلامتك".

ثم سمعت أحدًا يفتح باب الغُرْفَة بخطوات سريعة، وقال بفرحة:

- "نادية إزيِّك، أنا أحمد... ألف سلامة عليكي".

استعدت نشاطي لسماع صوته، حاولت النهوض فلم أقدر من شدَّة الألم، أمسك بيدي وهو يقول:

- "خلِّيكي مكانك متتحركيش، الظاهر أنتي اتخبطي جامد".

نظرت إليه وأنا أحاول استرجاع ما حدث، فقلت متهتهةً:

- "أنا فين؟ وإيه ألّلي حصل؟

- الظابط كان معاكي في المعبد، شافك مرميَّة على الأرض، اتصلنا بالإسعاف وجتلك جري".

كسا الاحمرار وجهي وقلت محرجةً:

- "شكلي تعبتكوا معايا".

ثم تذكرت مقابلتي للفرعون، فملت برأسي وقلت مسرعةً:

- "أنا قابلت الفرعون، توقعاتنا صح هو مسافر عبر الزمن".

بدَا الشغف على وجهه، مع مزيج من الحيرة فهو يريد معرفة ما حدث، وفي الوقت نفسه لا يريد إرهاقي، فأكملت كلامي متذكِّرةً:

- "أنا كنت بدوَّر على رسمة المكعب، ظهر قُدَّامي و"...

حكيت له كل ما حدث بيننا منذ أن قابلته مرورًا ببحثه عن قبعة الإسكندر إلى اللحظة التي ضربني في رأسي، كان أحمد يستمع إليَّ مُنصتًا، وما إن انتهيت حتى ابتسم وقال:

- "المرة دي جت سليمة، بعد كدة أنا معاكي مش هسيبك لحظة".

شعرت بالسعادة في قلبي وهو يطمئنني، لم أعترض رغم شخصيتي الجارحة، أعجبني خوفه عليَّ؛ مما دفعني للابتسام والإمساك بيديه وأنا أقول:

- "طب إحنا هنعمل إيه"؟

حاولت النهوض فساعدني وهو يقول:

- "الأول هنطمِّن عليكي.

- أنا كويسة، ومعندناش وقت، لازم نروح إسكندرية بسرعة، هو أكيد هيكون هناك".

التفت إليَّ في تعجب وقال:

- "إشمعنى إسكندرية"؟!

تعجبت أنا أيضًا من نطقي بهذه الكلمات، ولكن شعورًا بداخلي ينمو بأن الإسكندرية هي وجهتنا المقبلة.

****

لمحت زياد يأتي من بعيد وأنا أتناول كوبًا من عصير الليمون، أشرت بيديَّ ليراني، وما إن لمحني حتى أتى مُسرعًا، جلس وهو يمسك ببطنه وقال مازحًا:

- "عصير ليمون إيه بس، بقُولِّك أنا جعان".

- ما أنا قُلْت أشرب العصير على ماتوصل.. ولَّا كنت تحب آكل قبليك؟

- لا أنا مش جاي من آخر الدنيا عشان آكل لوحدي... ها، تحبي تاكلي إيه"؟

أمسكت بقائمة الطعام وطلبت وجبة خفيفة، نظر إليَّ باسمًا وهو يقول:

- "أنا أكيد مش هاكُل زيِّك، أنا عايز فرخة وشوية لحمة، على طَبق رُزّ كبير... ونشوف بقى هنحلِّي بإيه".

ضحكت وأنا أقول باسمةً:

- "بالهنا والشفا ماأنت مش دافع حاجة، كُلُّه على حساب الشغل.

- إذا كان كدة أزود في الأكل شوية".

قهقهت من قلبي وقلت مندهشةً:

- "أنا مضحكتش كدة من زمان... آخر مرة مع ابني".

بدا الاهتمام على وجهه وهو يقول:

- "احكيلي على ابنك، أنتي قُلْتي دي قصة طويلة".

نظرت إلى الأرض وأنا أتذكَّر الحادثة، فقلت باقتضاب:

- "جوزي وابني ماتوا في حادثة عربية".

بدَا الأسف عليه، وقال معتذرًا:

- "أنا آسف مش قصدي أفكرك".

حاولت حبس دموعي وأنا أتحاشى النظر إليه:

- "لا مفيش مشكلة، بس ساعات بيوحشوني".

حاولت الخروج عن هذا الحوار فسألته:

- "أنت وصلت لحاجة"؟

قال بحماس:

- "فاكرة لما قُلتي إنَّه بيشرب ميَّة كتير، الجملة دي خلتني أراجع حساباتي، المية لازم تخُشّ في المعادلة، الفرعون بتاعنا ده بيشرب مية كتير لسبب معين، عايز جسمه يفضل نشيط والدورة الدموية شغَّالة بكفاءة، كدة يسهل عليه السفر دون أضرار".

تحولت ملامحي أكثر إلى الجِدِّية، ثم بدأ الرعب يتملَّكني، وأنا أنظر خلفه قائلة:

- "زياد!!!

- إيه جعانة"؟

تجاهلت دعابته وزاد توتري وبصوت منخفض همست:

- "الفرعون وراك هو ده نفس الراجل إللي كنت براقبه".

وهنا تحولت كل مراحل الضحك واللعب إلى الجد، ساد التوتر المكان، لاحظت عرجة خفيفة في ساقيْه لم تكن موجودة، وفي خطوات ثابتة دخل المقهى، يقترب أكثر مني، رأيت نظراته لي، تُرَى أيعرف بأني أراقبه؟

****

لم أفهم لماذا حددت نادية وجهتنا إلى الإسكندرية، أبسبب ما قالته عن الإسكندر الأكبر، سألتها بحذر :

- "ليه إسكندرية؟... أنتي افتكرتي حاجة"؟!
بدَا التفكير على وجهها، وبصوت مرتفع رددت:
- "لأ، بس الإسكندر الأكبر هو إللي أسس مدينة الإسكندرية، لو في حاجة هتكون هناك".
حاولت مجاراتها مُستفهمًا:
- "ويا ترى إيه ممكن يكون هناك"؟
نظرت لي وبَدَا الحماس يظهر على صوتها وسألتني:
- "هو معاه المكعب والعصايا، أكيد كان محتاجهم لحاجة معينة".
نظرت إليَّ بثقة وهي تقول:
- "تعرف إيه عن الإسكندر الأكبر"؟
أسندت ظهري للوراء، وقلت مداعبًا:
- "معرفش غير اسمه".
أطلقت ضحكة رقيقة من حلقها، ثم استطردت قائلةً:
- "بُصّ يا سيدي، زمان في عهد الأسرة التلاتين، كانت مصر مُحتلَّة من الفرس، والإسكندر الأكبر هو إللي حررها، من غير أي مقاومة من المصريين بالعكس دول عملوا احتفال في معبد الإله أمون، ونَصَّبوه فرعون لمصر".
قاطعتها مستفسرًا:
- "يعني الإسكندر ده يُعتبر من الفراعنة".

نفت برأسها وهي تكمل:
- "مش بالظبط، دي حاجة رمزية، نرجع لكلامنا، الإسكندر الأكبر ده كان مشهور بخوذة فيها قرنين؛ لدرجة أن في أساطير بتقول إن الخوذة دي هي مصدر القوة بتاعته ومن غيرها هيخسر كل الحروب".
تعجبت من كلامها وقلت باسمًا:
- "إزاي الناس كانت مصدقة في الكلام ده؟
- عادي كان الجهل مسيطر على كل حاجة، وأي عذر يحسّسِهم أن الموضوع مش بأيديهم".
حاولت جاهدًا فهم ماذا ترمي إليه أو ما تقصده فسألتها:
- "طب إيه برضو علاقة الخوذة بالإسكندرية؟
- زي ما قلت الفرعون بتاعنا ده كان بيدوَّر على الخوذة، غالبًا عشان القوة المزعومة، وأكيد المكعب والعصايا دي بوصلة أو حاجة هتساعده يوصل للخوذة".
حاولت استيعاب هذا الكَمّ من المعلومات والتغاضي عمَّا لا يُعقل، لفهم أي شيء يمكِّننا من الإمساك به، وما إن أدركت ما ترمي إليه حتى لمعت عيناي وأنا أقول:
- "يعني الخوذة دي في إسكندرية؟
- معرفش"؟

زادت إجابتها من دهشتي وبَدَا عدم الفهم على وجهي، وقد لاحظت ذلك، فأكملت قائلةً:

- "الإسكندر الأكبر مات في العراق بمدينة بابل، وبنوا تابوت من الذهب الخالص، سافر على مصر عشان التحنيط، وبعد كدة كمّل رحلته لبلاد كتير".

- يعني هو مش مدفون في مصر"؟

قطع حديثنا رنينُ المحمول، وكانت مريم هي المتصل، أشرت إليها بالتوقف عن الحديث وأنا أقول لها:

- "دي مريم، هشوفها عايزة إيه".

رددت عليها بهدوء:

- "ألو...

- أيوة أنا مريم يا حضرة الظابط، أنا مع زياد، لقينا الفرعون.

بدا الذهول على وجهي إلى أن لاحظته نادية، تساءَلت في صمت، فأكملت حديثي لمريم:

- اوعي يفلت منكم.

****

حبست أنفاسي وأنا أرى الفرعون يقترب مني، في مكاني لا أعرف ماذا أفعل، حاول زياد النظر خلفه، فمنعته في صمت خوفًا من ملاحظته لنا، مر أمامنا، ثم أكمل طريقه إلى الطاولة خلفنا، وجلس إليها.

بدأت في التقاط أنفاسي مرة أخرى، نظرت إلى زياد، وكان يأكل وهو يراقب الفرعون في محاولة لعدم لفت الانتباه لنا، ثم قال دونَ أنْ يوقف حركته:

- "عايزك تقُومِي تجيبي العربية، عشان لو اتحرك نفضل وراه".

فأومأت برأسي في محاولة لمسك أعصابي، فأكمل زياد كلامه:

- "وأنتي في الطريق كلمي الظابط أحمد، وقوليله على الموقف، أنا هحاسب وهستنَّاكي.

ذهبت مسرعة والارتباك لا يزال يظهر على وجهي، أخذت في الابتعاد عن المقهى ثم أمسكت بهاتفي، وأدرت رقمًا أعرفه تمام، لم تكن هذه النمرة تخص الضابط أحمد، بل هي لآخر شخص قد تتخيله على الإطلاق، إنها نمرة الفرعون... نعم كما سمعت نمرة الفرعون المصري القديم، فأنا أحد أتباعه.

****

الفصل السادس

«هناك من يرى الحب حياةً،
وهناك من يراه كذبةً، كلاهما صادق،
فالأول التقى بروحه، والثاني فقدها».
محمود درويش

"مقتل البروفيسور الأمريكي مارك فيكتور في شقته... من قتله ولماذا؟!!"، لفت انتباهي عنوان الجريدة الإلكترونيَّة التي كنت أتصفَّحها على هاتفي بلا اكتراث، وأنا أتناول القهوة في شارع الكُرْبة، فمن النادر أن تنشر قضيَّة مقتل رجل أمريكي، بهذه السرعة، حاولت الاطِّلاع على المحتوى والذي لن تفهم منه شيئًا، سوى الخوف من تدخل السفارة الأمريكيَّة.

- "آنسَة مريم".

استوقفني صوت رجل يهتف باسمي، لمحت طوله العجيب، وبذلته السوداء المهندمة، فسألته بأدب:

- "حضرتك تعرفني"؟

رسم البسمة على وجهه ثم أشار للكرسي كي يجلس، لم أُجِبْه، فأخذه وجلس بلا اكتراث لموافقتي، ثم قال مكملًا:

- "أعرفك كويس جدًّا وأعرف حسام جوزك".

كست وجهي نظراتُ الاستغراب، فقلت بحذر:

- "بس أنا عمري ما شوفتك وأنا أعرف كل صحاب حسام حتى زمايله في الشغل".

ظلت ابتسامته على وجهه، وهو يشير لكوب الماء وقال مستئذنًا:

- "ممكن أشرب ميَّة"؟

أخذها على نفس واحد، قبل أن يكمل:

- "أنا أعرفه بس هو ميعرفنيش".

لم أفهم مراده، بدأ عقلي يُنذرني بالخطر، استثمر حالة الصمت التي أنا عليها وقال بعينين لامعتين:

- "حسام مماتش، لسة عايش، أنا ممكن أخلِّيكي تشوفيه".

علا صوتي وأنا أقف:

- "حسام مات قُدَّامي، من فضلك امشي من هنا، أنا مش حِمْل كلام فاضي".

نهض هو الآخر في محاولة لتهدئة أعصابي:

- "أنا أعرف أخلِّيكي تشوفيه، الحكاية بالنسبالي سهلة... أنا رايح هرم سَقَّارة حالًا، لو عايزة تشوفي جوزك خليكي ورايا... أه صحيح بس صوِّري كل حاجة بتحصل، أو راقبيني بمعنى تاني، مش دي أكتر حاجة بتعمليها اليومين دول"!

شعرت بقوة خفيَّة تدفعني للسير وراءه، فلم أكن أتخيَّل ما يحدث حتى في أحلك كوابيسي، واصلت المشي بخطوات واسعة تحولت إلى شبه قفز.

ركب سيارته، تبعته وأنا أسجل كل حركاته وأحتفظ بالمساحة المحددة، رأيته يقف، يكلم أحد الأعراب، يذهب للهرم ثم يختفي.

تصنَّعت الابتسامة في محاولة لإخفاء توتري، انتظرته حتى عاد مرة أخرى، ومعه شخص يلبس ملابس فرعونيَّة، جاء إلى سيارتي، وبلا مقدمات أشار إلى الرجل وقال:

- "أنا باعرف أسافر عبر الزمن، الراجل ده فرعوني، أنا لسة جايبه، لو لسة شاكَّة كِلِّي معايا اليوم وأنا متأكد أن إحنا هنتفق في النهاية.

****

أصبحت عاجزةً عن الكلام،أصابني السكون للحظات، فتركني متجهًا للعواميد مرة أخرى، ترددت في الخروج ولكن فكرة رؤية حسام سيطرت على عقلي، ظل الأمل يزداد في قلبي، فخرجت من السيَّارة، لا أعرف ماذا أفعل، ووجدت نفسي أصيح مُهرتلةً:

- "أنت مين وعايز مني إيه؟... ابعد عني أنت وتخاريفك دي".

اقتربت منه، فأمسك بكتفي وهو يحاول تهدئتي بصوته الواثق من نفسه:

- "زي ما جبت الراجل ده، أقدر أودِّيكي لحسام. بس اهدِي عشان نعرف نتفاهم".

وقعت كلماته عليَّ كالسحر، أرغمتني على تطبيق تعليماته حرفيًّا، فقد أحيا في قلبي أملًا كساه تراب النسيان، أطلقت العنان لدموعي

تنهمر، تركته يفعل ما يريد، فقد تملَّكني كالعبيد لا حيلة لي، لا أقدر على الرفض أو المقاومة.

ظل يلفُّ حول العواميد، يطرق بها إلى أن اسودَّت الدنيا أمامي، وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسي في المطبخ داخل شقتي. فشهقت ممَّا يحدث.

سمعت صوت التلفاز، صوت حسام، وما إن رأيته حتى تناسيت كل شيء، صرخت:

- "حسام، أنت عايش"!

لم أتمالك نفسي من شدَّة شوقي إليه، عانقته بقوة، تركت دموعي تنساب بغزارة، قفزت نحوه وطوقت ظهره بساقي وعنقه بذراعي، ثم قبَّلته في خَدِّه، في شعره، بين شفتيه بنهم شديد، ظهر التعجب عليه وقال مذهولًا:

- "مريم فيه إيه، أكيد عايش"..

وقعت عيني على ابني ينظر إلينا في تعجب، فتركت حسام وركعت على ركبتيَّ، ضممته بين ذراعيَّ، ولا أقول غير كلمة واحدة:

- "وحشتني قوي، مش هسيبك أبدًا".

لم يفهم حسام ما يحدث، سمع وقع أقدام تأتي من المطبخ، فالتفت ليجد الفرعون أمامه ببذلته الفخيمة. فتساءل:

- "مين الراجل ده؟، وجِه إزاي هنا"؟

لم ألتفت إليه وأنا ما زلت أحضن ابني وأمسح دموعي، لا أقدر على النطق، أسمعه يقول لي:

- "ماما فيه إيه؟، بتعيطي ليه"؟

فقلت متهتهةً من العياط:

- "مفيش حاجة، دي دموع فرحة، أنت عامل إيه"؟

تدخَّل الفرعون موجهًا كلامه إليَّ، غير مكترثٍ بوجود حسام، وهو يقول:

- "أنتوا هتسافروا السُّخْنة بكرة". لازم نرجع حالًا".

توقفت للحظة لأدرك أين أنا ومتى!!، توجهت لحسام، وقلت بتوسل:

- "حسام، متسافرش السخنة بكرة، عشان خاطري".

وهنا أمسكني الفرعون من ذراعي حاولت الإفلات منه؛ ولكن السواد عاد مرة أخرى.

****

ما هي إلا لحظات حتى عدت إلى عالمي، إلى هرم سَقَّارة وسط العواميد. بدأت بتحرك نحو الفرعون وأنا أضربه بكلتا يديَّ، أصيح باكيةً:

- "عايزة أرجع هناك".

أصابني الجنون، أضرب في العواميد بلا جدوى، أصابني اليأس، ركعت أمامه أمسك برجليه وأقول متوسلةً:

- "رجَّعني هناك، رجعني"...

استمر الفرعون في صمته، حتى تملَّك مني التعب، وقال مسيطرًا على الموقف:

- "خلاص يبقى نتفق، هطلب منك طلب صغير لو نفذتيه، هرجَّعِك تعيشي مع حسام".

أصبحت أسيرة له، نظرت إليه وأنا ما زلت تحت قدميه:

- "أنا تحت أمرك، عايز مني إيه"؟

بدَا النصر عله بعد أن تأكد من تملُّكه مني، فقال شارحًا:

- "عايزك تقربي من الظابط، هحكيلك هنعمل إيه خطوة خطوة، أول حاجة، هتاخدي الشريط إللي سجلتيه ليَّا وتروحي أمن الدولة".

بدأت في البكاء بعد أن سلبني الحياة، أصبحت صورة زوجي وابني تسيطر على تفكيري، دون إرادة وجدت نفسي أقول:

- "أنا تحت أمرك".

****

الفصل السابع

«وتشابهت كل البلاد،

فلا أرى نفسي هناك، ولا أرى نفسي هنا».

نزار قباني

لمحت مريم تجلس مع زياد على الطاولة فتفاديتهم وجلست خلفهم حتى لا أثير الشبهات، ما زالت ساقي تؤلمني من الرصاصة، ولولا صلابتي وإدراكي للعلوم الطبية التي تعلمتها على يد أعظم الكهنة، لأصبحت عاجزًا عن الحركة.

أعلم بأنهم يراقبونني، وها قد اقتربت النهاية، فالآن مع المكعب والعصا، أستطيع الآن أخذ الرأس ونقله، وهنا يأتي دورهم. فهم من سيجدون المقبرة ويخرجون الرأس لي. لذا، لا بُدَّ من الالتزام بالخطة كما رسمتها.

رَنَّ هاتفي بعد دقيقة من قيام مريم، ابتسمت، أعطيت ظهري لزياد ثم رددت على الهاتف، فسمعت صوت مريم غاضبةً:

- "أنت ليه قاعد هنا؟، مش أنت عارف أن زياد معايا، أنا لسة قايلالك الصبح، أنت المفروض تكون في المعبد مستنِّي نادية، وترميلها الطُّعْم بتاع الخوذة".

ابتسمت في هدوء وأنا أقول:

- "ماتخفيش أنا عارف بعمل إيه، نادية شربت الطعم وأكيد هيروحوا إسكندرية قريب. بس أنتي قُمْتي ليه"؟

- أنا رايحة أجيب العربية، والمفروض أكلم الظابط أحمد وأقولُّه إن إحنا لقيناك... شُفْت الورطة عاملة إيه"؟

أخذت بُرهة من الوقت وأنا أفكر، ثم قلت بهدوء:

- "وإيه المشكلة، أنتي هتعملي المطلوب منك، هتراقبيني وتبلَّغي".

- أنت كدة هتوديني في داهية".

انزعجت من كلامها، فقلت بصرامة:

- "أنا فرصتك الوحيدة، من غيري مش هترجعي بالزمن وتنقذي أسرتك من الموت"...

شعرت بترددها وظهر اليأس في صوتها:

- "طب أنا عايزة أشوفهم مرة كمان، نفسي أشوفهم تاني".

لو كل حاجة مشيت صح، بكرة هتكوني معاهم... يلَّا روحي حالًا وكلمي أحمد".

أغلقت الهاتف، ثم اعتدلت في جلستي، لأجد زياد لا يزال جالسًا، في محاولة لعدم لفت الانتباه،قلت في سري، "أنت يا زياد مَنْ لا بُدَّ لي من الخوف منه، فإيمانك بالتكنولوجيا هو الخطر الحقيقي".

****

بدأت أشعر بالقلق وأنا أستمع لما تقوله مريم، فلم أتوقع سرعة وصولها للفرعون، وقد لاحظت مريم ذلك، فقالت:

- "خير في حاجة"؟

ما زالت مريم على الهاتف فأمرتها:

- "خَلِّيكي وراه ماتخِلِّيهوش يروح لحظة من عنيكي، أنا جايلك في السكة".

ثم أغلقت الهاتف، وما إن فعلت حتى هبت نادية واقفةً:

- "أنا جايَّة معاك، محدش هيفهم الفرعون ده زي ما أنا فاهماه".

اقتنعت بكلامها وقلت:

- "يلَّا بسرعة مفيش وقت، وفي العربية تكمِّلي قصة الإسكندر الأكبر عشان الأمور تكون واضحة".

لَمْ تَمْضِ على هذه المحادثة أكثر من ربع ساعة حتى كنا نقود السيَّارة، فسألتني مريم:

- "همَّا رايحين فين؟

- لسة نادية قايلالي إن هما مسكوا طريق إسكندرية الصحراوي.

- ده بيأكد كلامي".

نظرت إليها وأنا أوافقها الرأي، ثم أكملت:

- "لو الإسكندر مش مدفون في مصر هيكون مدفون فين"؟

تذكرت مريم حديثنا وهي تقول:

- "في أقاويل كتير من بعض المؤرخين، بتقول إن صراع كبير بين الملوك حدث بعد وفاة الإسكندر لاختلافهم على مكان دفنه، بعد

كدة الملك بطليموس الأول عرف يهرَّب التابوت بالمركب لمدينة منفيس (إسكندرية حاليًّا)، كترت الإشاعات أنَّه مدفون تحت مسجد النبي دانيال، وإشاعات أكتر أنَّه مدفون في البحر المتوسط قرب شواطئ الإسكندرية، أو في الواحات، وناس تانية بتقول إنَّه مدفون في معبد أمون".

حاولت استيعاب ما تقول وأنا أفكر بصوتٍ عالٍ:

- "يعني إحنا ماشيين ورا إشاعات!

- بالظبط كدة، بس هو متأكد أن الخوذة مدفونة معاه في إسكندرية، وإلا ماكنش هيروح هناك".

وافقتها الرأي وقلت لها:

- "إحنا لازم نستفيد بالمعلومة دي.

- أي واحدة؟

- هو لسة ملاقاش الخوذة، لازم يحس أن الخوذة معانا عشان هو إللي يجري ورانا.

- طب إزاي"؟

لم أرد عليها، ظللت أفكر بما يمكننا عمله، طرأت بذور الفكرة في رأسي فقلت مُسرعًا:

- "لو افترضنا أن الإشاعات دي صح، تفتكري إيه أكتر مكان يكون الإسكندر الأكبر مدفون فيه"؟

لم تستوعب نادية ما أهدف إليه؛ ولكنها بدأت في التفكير العلمي، وقالت مراجعةً معلوماتها:

- "كان فيه عرَّاف زمان تنبَّأ بأن المكان إللي هيُدفن فيه الإسكندر، هيكون فيه ازدهار، وده سبب الحروب بين الملوك على دفنه، الملك بطليموس الأول عرف يخلِّي التابوت في مصر، يبقى أكيد هيكون في نفوذ حكمه، عشان كدة إسكندرية أحسن مكان".

نظرت إليها غير راضٍ عن الإجابة، فقلت لها مُتوسِّلًا بالتركيز أكثر:

- "فين في إسكندرية؟، أنا عايز أدق مكان.

- الإسكندرية زمان كانت حيِّين كُبار "رأس التين" و"الجمرك"، والباقي كان صحرا، فيها"...

لم أقاطعها في تفكيرها، ثم أكملت:

- "كنت قريت أن الملك "يوليوس قيصر" لما كان عايز يزور المقبرة راح عند تقاطع الشارعين الكبار، وقال مقولته المشهورة: "لقد جئت لأرى ملكًا لا لأرى أجسادًا". وبكدة هتكون المقبرة في منطقة مسجد النبي دانيال. دي أكتر مكان المؤرخين المصريين بيقولوا لو المقبرة في إسكندرية هتكون هناك، بس مفيش أي دليل وصلنا له يؤكد الكلام ده".

ابتسمت وأنا أقول:

- "إحنا مش عايزين دليل إحنا عايزين الفرعون يروح هناك.

- إزاي؟

- سيبي القصة دي عليَّا".

أمسكت بالهاتف، اتصلت بالضابط هيثم، وما هي إلا ثوانٍ حتى سمعت صوته، فقلت آمرًا:

- "هيثم، عايزك تطلع على إسكندرية حالًا، خد إذن من الداخلية ووزارة الآثار، عشان هنحط قوة حراسة عند مسجد النبي دانيال، وإشاعة كبيرة أن في مقبرة يُشتبه أنها تكون مقبرة الإسكندر تم اكتشافها".

ثم أغلقت الهاتف ورأيت الفجع على وجه نادية، وضعت يدي على كتفها وأنا أطمئنها:

- "شكل اللعب هيحلوّ".

****

عروس البحر الأبيض، ما أجملها عندما ترى البحر، تغرب عليه الشمس، بشعاعها الهزيل، ولمعانها الذهبي على الأمواج المتلاطمة، مع رائحة اليود، التي تملأ صدرك بالهواء، فتأخذ نَفَسًا عميقًا، يُخرج كل ما بداخلك من ذكريات، وهي أيضًا نهاية المطاف، هنا سأجد الخوذة، وسأنتصر، وستبقى حضارتنا إلى الأبد، سأجعلهم يساعدونني على اكتشاف المقبرة، فطبقًا لما توصلنا إليه فهو هنا.

لقد زرعت في عقل نادية بذور الفكرة وسرعان ما ستتوصل إلى الحل، لن يوقفها شغفها بالتاريخ للاستفادة مما حولها وبدء التنقيب سريعًا.

نظرت في مرآة السيَّارة لأجد سيارة مريم تسير بعيدًا خوفًا من اكتشافي لهم، لا بُدَّ أن زياد معها ويحاول جاهدًا عدم الوقوع في أي خطأ.

لكن الآن لا بُدَّ لي من الاختفاء، انحرفت بالسيَّارة يمينًا، وما إن بقيت وحيدًا حتى تركت السيَّارة في منتصف الطريق، لم أبالِ بصوت البوق الذي أتي من السيارات خلفي، أكملت سيري حتى اختفت وسط الطرق، أخذت أدلف من شارع صغير إلى آخر حتى تأكدت تمامًا من أن لا أحد يتبعني.

أمسكت بهاتفي، بدأت في تفحّص الأخبار، حتى وقع بصري على هذا الخبر:

- " العثور على مقبرة يشتبه في كونها للإسكندر الأكبر".

ابتسمت فها هي الأحداث تسير مثلما أرسمه لها، لن يبقى الآن سوى الذهاب إلى هناك،

أوقفت التاكسي الذي رأيته أمامي، وما إن ركبت حتى قلت:

- "مسجد النبي دانيال".

ابتسم السائق وهو يقول:

- "شكلك رايح تتفرج على المقبرة... بس يا خسارة المكان كله مِتلغَّم شرطة، محدش هيعرف يعدِّي".

وهنا جاءت صدمتي، لمَا كل هذا الكَمّ من الشُّرْطَة. لا بُدَّ لي من حل ولكن ماذا سأفعل؟!

****

ما إن رأيت انحراف سيارة الفرعون إلى اليمين حتى قلت لمريم:

- "خدي بالك شكله عارف أن إحنا بنراقبه".

لم تنطق مريم بحرف، وهي تنحرف مسرعة، وما إن دخلت حتى كبست فرامل السيَّارة في سرعة مما جعلني أنتفض، وحمدًا لله على ارتدائي لحزام الأمان الذي جذبني بقوة، سمعتها تهتف بامتعاض:

- "هو في إيه، الشارع ده صغير إيه إللي موقفه فجأةً"؟

خرجت مُسرعًا أنظر في سبب الزحام حتى رأيت سيارة الرجل الفرعوني تسد الطريق، ثم لمحته ينحرف يمينًا، حاولت الهرولة وراءه لكن بدني السمين لن يقدر على ذلك، رأيت مريم تتجاوزني؛ لكن المسافة لم تكن قصيرة، رأيت نادية تقف حائرة تتلفَّت يمينًا ويسارًا بلا جدوى؛ فقد فقدنا أثره.

وما إن وصلت لمريم حتى قلت والإنهاك على صوتي:

- "راح فين"؟

لم تجد ما تقوله، بحثت حولي أملًا في إيجاده فلمحت سيارته التي أصبحنا بقربها فاتجهت نحوها، نظرت إلى سيارته واتجهت إليها، فتبعتني مريم.

هتفت نادية محذرةً:

- "خد بالك"!

ووقع الانفجار.

****

اتخذت مكان القيادة أتلقى الأخبار من الضباط، أراقبهم وهم يحوطون المكان، والبعض الآخر يحمل كثيرًا من الأجهزة الاستشعارية، الكل متحفز منتظر للحظة خروج المقبرة الوهمية، جاءت نادية إلى جواري وهي تتساءل:

- "تفتكر هيظهر"؟

أومأت برأسي دون النظر إليها، وقلت مؤكِّدًا:

- "هيظهر، عمره ما هيفوِّت لحظة زي دي؛ لازم يشوف بنفسه لحظة المقبرة وهي بتتفتح حتى لو كان عمره التمن".

شعرت بالخوف يتشكَّل على وجهها، فقلت مطمئنًا:

- "بس إحنا مستعدين، أول لما يظهر هنمسكه على طول".

ثم دوى انفجار اهتزت له الأرض من تحتي، رأيت التوتر على الجنود والكل ينظر في اتجاه واحد، إلى العمارة المتهالكة وقد بدأت في الانهيار أمامنا. ثم توالت الصيحات وساد الهرجُ المكان.

****

اختبأت أدرس المكان، أرى الجنود يحاوطون المكان، والمقبرة على وشك الظهور، لم يعد أمامي حل آخر، لا بُدَّ لي من تشتيت الانتباه حتى أستطيع الدخول، ألتفت حولي لأجد مبنى صغيرًا قديمًا قارَب على الانهيار، تسللت إليه في خلسة.

أخرجت من حقيبتي بعض العبوات الناسفة البدائية تكفي لإحداث انفجار يلفت انتباههم. وزعتها بين أرجاء المكان، أشعلت الفتيل ثم خرجت مُسرعًا، ما هي إلَّا لحظات حتى دوى الانفجار.

بدأت الشُّرْطَة في الارتجال، ذهبوا مسرعين نحو الصوت، نظرت بعيني حتى لمحت أقرب جندي مني، ثم تواريت جوار الحائط وما إن اقترب حتى جذبته من الخلف، ضربته عدة ضربات قوية وأنا أكتم فمه حتى فقد الوعي، نزعت ملابسه في سرعة ولبست خوذته،

وملابسه في سرعة ثم اتجهت عكس الزحف وأنا أهتف بصوتٍ جهوري:

- "يلَّا بسرعة العمارة بتقع، روحوا على هناك".

ابتسمت فأصعب مرحلة قد مرت بسلام، والآن سأتجه مباشرةً إلى المقبرة لنرى ما قد توصلت إليه مريم.

حاولت الاختفاء عن الأنظار وقد ساعدني زي الشُّرْطَة كثيرًا.

وهَا أَنا أقف الآن أمام الدَّرَج المؤدي إلى المقبرة، كان صوت الانفجار هو أقوى محرك للحُلْم الكبير. لن ينتبه أحد لي ولن أطيل البقاء.

بدأت في النزول تدريجيًّا، أخرجت الكشاف من حقيبتي، وما إن أشعلت النور حتى سمعت:

- "أهلًا بيك، كنت فاكر أن المقبرة هنا، دانْتَ طلعت ساذج... اقبضوا عليه".

****

سمعت أصوات الانفجارات تأتي من بعيد، ورأيت طبقة من الضباب الأبيض تكسو السماء، هتفت مريم وهي تشير إلى مسجد قديم:

- "الصوت من هنا، ده المسجد إللي أحمد ونادية فيه".

مسحت عرقي أملًا في التقليل من توتري، فأنا لم أعتَدْ على هذا النوع من الأحداث؛ لكن مريم خرجت من الموقف بسرعة وهي تعود لسيارتنا وتحثُّني على الإسراع:

- "يلَّا لازم نروح هناك بسرعة، الظابط أحمد كان قايل إن الكروت إللي معانا هتساعدنا نخُشّ بسهولة".

نظرت إلى مريم وقد بَدَا عدم الفهم يظهر على وجهي، وأنا أقول:

- "هنروح مسجد النبي دانيال، الظاهر في تطورات كتيرة إحنا مش عارفنها".

تجاهلتني مريم تمامًا وهي تقود السيَّارة، ثم سألتني:

- "طب الفرعون، هنعمل إيه معاه؟

- معرفش، أهم حاجة نطمِّن عليهم، بحاول أكلمهم محدِّش بيرد".

أومأت مريم برأسها دون الحاجة للإجابة، استمررت في العبث بهاتفي أملًا في نسف توتري، وما إن وقعت عيني على خبر العثور على المقبرة عند مسجد النبي دانيال، حتى قلت بصوت يملؤه الغموض:

- "ده في مقبرة اكتشفوها هناك والظابط أحمد هناك، أكيد دي ليها علاقة بالقضية".

كان الوجوم يكسو وجهها وهي تقول:

- "خلاص إحنا وصلنا، أنا شايفة شرطة من بعيد، ممكن نركن هنا ونتمشى الحتة دي هيكون أسرع.

- يلَّا بينا".

بدأنا في السير لدقائق كان الهرج والمرج يحوم حول المكان، أمسكت مريم بيدي وأنا أحاول بَثَّ الهدوء فيها، حاولت تأمل المنظر من حولي، لم يكن هنالك داعٍ لطلب حق المرور، فلم يعد هناك نظام.

سمعت مريم تقول:

- "أكيد دي عمايل الفرعون".

وافقتها وأنا أقول:

- "عشان كدة لازم نتحرك أسرع، بس يا ترى المقبرة فين"؟

نظرت حولي أستكشف المكان، حتى ألفت نظري رجل طويل يرتدي ملابس الشُّرْطَة، ولكنه يتجه عكس الآخرين، فصحت وأنا أهرول:

- "الفرعون، أنا شايفه هناك. بينزل من بعيد".

وما إن رأته مريم حتى بدأت في الركض، تعجبت من سرعتها التي بدأت في الزيادة، وما إن وصلنا إلى الدَّرَج حتى بدأنا في النزول، وقد ساد الظلامُ المكانَ ولم أُعُدْ أرى مريم أمامي.

سمعت صوت الضابط أحمد وهو يقول:

- "اقبضوا عليه".

تهللت أساريري، فقد ظننت أنهم ألقوا القبض على الفرعون.

سمعت صوت ارتطام ثم مشاجرة وصريخ مريم من الآلام، وما إن وصلت حتى رأيت الفرعون يمسك بمريم من يدٍ والأخرى ممسكة بمسدس، وهو يقول:

- "خطوة كمان وهافجَّر راسها".

فتسمَّر الجميع.

****

حدَّقت الوجوه جميعًا في المنتصف، للمرة الأولى أشعر بأني أمام فيلم رعب، فالفرعون يمسك بمريم والمسدس في يده الأخرى، أحمد يقف ساكنًا بنظرات ثابتة مصوبًا مسدسه إلى الفرعون يتعامل بحذر، خوفًا من أي تصرف خاطئ قد يؤذي حياتها.

رأيت زياد يأتي من بعيد وقد تملَّكه الرعب، مرت لحظات لم يتحرك أحد، إلى أن قال الفرعون بلهجة حازمة موجهًا كلامه إليَّ:

- "نادية، الشنطة إللي هارميهالك حالًا افتحيها".

نظرت إلى أحمد والفرعون يلقي بالحقيبة أمامي، ولم أعُدْ أعرف ماذا أفعل، أكمل الفرعون كلامه:

- "أنتي عارفة إزاي هترُصّي العواميد".

ثم التفت إلى زياد وكأنه كان يعلم بوجوده، وقال:

- "أنت ممكن تساعدها، غير كدة كل واحد مايتحركش من مكانه. طلقتي أسرع لدماغها من أي حد".

لم يتحرك أحد، ثم بَدَا الانزعاج على وجه الفرعون، وقرب المسدس من رأس مريم وكأنه يحذرنا من أي تصرف أهوج، أومأ أحمد برأسه في علامة لتنفيذ أوامره، وقال بثبات منقطع النظير:

- "إحنا مش عايزين إصابات، هيعملوا كل حاجة بالراحة، ومن غير ما حد يتحرك".

فرَدَّ الفرعون مُبتسمًا:

- "عين العقل، فين الخوذة"؟

ارتجفت فرائصي فأنا أعلم بعدم وجودها، سمعت أحمد يقول:

- "المقبرة دي خُدْعة، مفيش حاجة هنا".

لم يعجبه ما سمعه ثم رمقني فأسرعت برَصِّ العواميد، وما إن انتهينا حتى اقترب الفرعون ومعه مريم، وهو يقول:

- "مريم هتفضل بخير معايا. الخوذة مقابل مريم".

- باقولَّك مش معانا

- مش مشكلتي".

ثم اقترب أكثر حتى أصبح داخل الحلقة المرسومة بالعواميد، طرَقَ على العواميد بحذر.

بدأ المكان في الاهتزاز وانبعث دخان خفيف يتصاعد من العواميد مضيئًا قناة متجهة لأعلى، يمكن لروح أن تسافر عبرها، كثرت الاهتزازات وبدأوا في الاختفاء، استجمعت قواي ثم قذفت نفسي معهم داخل الحلقة. وقد أظلمت الدنيا فجأةً أمام عينيَّ؛ لم أعُد أرى أحدًا حولي.

****

الفصل الثامن

«إذا لم تعلم أين تذهب،

فكل الطرق تفي بالغرض».

هتلر

ارتطم رأسي بأرض صلبة، شعرت معها بالصداع الرهيب، حاولت النهوض فلم أقدر، بَدَا الإعياء عليَّ، نظرت حولي لأجد نفسي في بهو كبير، شعرت بمعرفتي للمكان، فتلك العواميد موجودة في معبد پتاح، ولكنها كانت متهالكة. تُرى، كيف عادت إلى رونقها، وكيف أتيت إلى هنا؟

بدأت أسترجع ما حدث، تذكرت اندفاعي مع مريم والفرعون إلى الحلقة، سمعت تأوهات من خلفي فاستدرت لأجد مريم جواري، أسرعت إليها لمساعدتها، نظرت لي بمقت غريب، لم تدعني أساعدها، نهضت واندفعت نحو الفرعون وهي تحاول لَكْمَه لكمات طفوليَّة قائلة:

- "مش ده كان اتفاقنا، أنا عايزة أشوف ابني".

لطمها الفرعون لطمة قوية أسقطتها أرضًا، رأيت بعض الحراس يرتدون الزيَّ الفرعوني، يأتون من بعيد مسرعين نحوي والفرعون يوجه حديثه نحوي:

- "عملتي إيه، أنا كنت معتمد عليكي عشان تطلعي الخوذة، كدة أنتي بوَّظتي كل حاجة".

ثم أشار إلى الحراس وقال بلهجة فرعونيَّة:

- "احبسوها".

لم أستوعب ما يحدث، أين أنا، ومن هؤلاء، وما الذي تقوله مريم، ألديها سابق معرفة بهذا الفرعون؟!

كل تلك الأسئلة جعلتني أعجز عن النطق، استسلمت للحراس وهم يقتادونني بين الممرات إلى غُرْفَة صغيرة حبسوني داخلها.

****

أغلقت الباب خلفي، والغضب هو كل ما أملكه، عاتبت نفسي على ترك الأمور تخرج عن إطارها، لقد جعلتهم يرحلون دون أدنى مقاومة، رأيت ما يفعله، عرفت أنَّه سيرحل، ولكني لم أتدخل.

راجعت الأحداث بسرعة، توقفت في اللحظة التي قفزت فيها نادية، تُرى أين هي؟ أخشى أن يكون قد تخلص منها، لا...

رَنَّ هاتفي المحمول وكان زياد هو المتصل:

- "أيوة يا زياد، في حاجة؟

- حضرة الظابط، إحنا لازم نتصرف، أنا مش هاسيب مريم مع المخلوق الفظيع ده.

- طب اهدَى شوية أنا هاجيلك، ونشوف إيه ممكن نعمله".

لم تمر أكثر من ساعة حتى كنت أجلس في معمل زياد، وما إن رآني حتى قال:

- "بقالي فترة شغَّال على اختراع آلة الزمن، والأفكار الجديدة ساعدتني كتير، وعرفت كمان سر الميَّة وأهميتها.، أنا مستعد أجربه عليَّا وأسافر".

نظرت إلى الجهاز بتأمل وأنا أفكر فيما يقوله، فالفكرة مجنونة، جهاز لم يتم تجريبه من قبل، لا أحد يعلم ماذا يمكن أن يفعل، حاولت طرد الفكرة والبحث عن حل بديل، لكن لا يوجد بديل، لا بُدَّ من الذهاب إلى هناك. لن نستطيع فعل شيء ونحن هنا. أخذت نفسًا عميقًا، سيطرت على أعصابي وأنا أقول بهدوء مصطنع:

- "الجهاز مش متجرب قبل كدة، وكمان مش عارفين إيه تبعاته".

رد زياد بحماس:

- "أنا مستعد أكتب أن ده تصرف مجنون مني وأنا متحمل كل تبعاته".

أكملت كلماتي وكأني لم أسمعه:

- "ولو فشلت التجربة وحصلَّك حاجة، معندناش بديل ليك، محدش يقدر يصلح أو يعدل في الفكرة.

- إن شاء الله هتنجح وهسافر".

توقفت عند هذه النقطة، نظرت بصرامة وأنا أقول:
- "أنت مش هتسافر يا زياد، وده أمر لازم يتنفذ".
وهنا كانت الصدمة على وجهه.

****

جلست في زنزانتي جلسة القرفصاء في أحد الأركان، شعرت بالضياع، عدم القدرة على المواصلة، لا أفهم ماذا يحدث، كل هذا الإرهاق الذهني جعلني لا أستطيع النوم طيلةَ الليل، سمعت خطوات ثابتة تتجه نحوي، رفعت رأسي لأجد مريم أمامي تحمل في يديها بعض الطعام. رأيتها تبتسم وهي تقول:
- "فطار فرعوني محصلش، يا ترى عمرك فكرتي أنك ممكن تفطريه بجد"؟
لم أرد عليها، تركتها تكمل ما تفعله، فقالت:
- "أنا لأ، بس هنعمل إيه ده حكم الدنيا، يلّا افطري، أصل الرحلة دي مجهدة جدًّا.
نظرت إلى ما تقدمه والفضول في رأسي لأعرف هل ما درسناه صحيح. أمسكت بالخبز وبدأت في قضمه قائلةً:
- "هو أنتي مع مين بالظبط، وإزاي تقفي ضد بلدك"؟

ضحكت مريم ضحكة مصطنعة وهي تقول:

- "حلوة بلدك دي، الدنيا مصالح وبس. ثم إنك لو مكاني هتعملي زيِّي بالظبط".

بدا التوتر عليها وهي تقترب قائلةً:

- "عارفة يعني إيه تشوفي ابنك وجوزك بعد ماماتوا؟، عارفة يعني إيه حد ييجي ويقولك هارجعهُمْلِك"؟

نظرت إليَّ وقالت في حدة:

- "هتبوسي أيده وهتعملي كل حاجة من غير ماتفكري".

رددت عليها باقتضاب:

- "إللي مات مابيرجعش".

ابتسمت وهي تعطيني ظهرها وتتركني:

- "طلع بيرجع".

ثم أغلقت الباب خلفها وتركتني وحيدة، في عالم لا أعرفه وزمن غير الزمن.

****

وقفت صامتًا حتى انتهى أبي من صلاته، رمقني بنظرة غاضبة وقال معاتبًا:

- كعادتك تعود دون جدوى، من هؤلاْء الذين جلبتهم معك؟، يبدو أن خطتك لم تَسِرْ على ما يُرام.

آلمني صدق كلامه، حاولت تصنُّع الوقار مبررًا ما حدث:

- لقد اقتربت من هدفي، لكن طرأ بعض التغير في اللحظات الأخيرة، مما اضطرني للعودة معهم.

ضرب أبي العصا في الأرض بشدة كأنه ينفث عن غضبه، تبدلت ملامحه من العتاب إلى اللوم وقال مهددًا:

- كفى مهاترات، يكفي ما فعلته من محاولات فاشلة، للتصدي لإرادة الله، لقد حذرتك من هذا... وفي النهاية ماذا جنيت؟. أرى الشحوب على وجهك. أعلم أنك تخفي حقيقة مرضك وتبعات التنقُّل التي آذتك.

- ولكن يا أبي...

أدار ظهره لي بعد أن نفد صبره، وبَدَا الانزعاج على صوته:

- انتهى الحديث، لن تعود مرة أخرى، أما الآن من تكون تلك السجينة؟

لم أقدر على مجادلته فحالته الآن لا تسمح بذلك، فجاريته فيما يسأل وأجبت:

- إنها عالمة آثار.
- ماذا تعني؟

حاولت تبسيط الأمر أكثر بطريقة يستطيع فهمها، فقلت شارحًا:

- خبيرة في التاريخ وخاصةً التاريخ الفرعوني.
- وهل تجيد لغتنا؟

أجبت باقتضاب:

- نعم.
- سأتحدث معها، أما أنت فلا تفكر بالعودة للمستقبل مرة أخرى.

ثم خرج، لم أستطع مواجهته، ولكني لن أتركه يمنعني من السفر، سأحاول ثانيةً وثالثةً، لن أَمَلَّ أبدًا، فهذا هو الأمل لنا في الخلاص.

****

وقفت أمام زنزانة السجينة، أسترجع ما قاله ابني عنها، فكنت حريصًا على مقابلتها، لفهم كثير من الأمور، أمرت الجنود بفتح الزنزانة، طرقت الأرض بعصاتي وبخطوات مسموعة بطيئة دخلت عليها، استمعت إلى أزيز الباب والحراس يغلقونه، ورأيتها، رمقتني نادية بمزيج من الشغف والخوف.

لم أفهم شيئًا من ملابسها نخيالي لا يمكن له استيعاب ما سيحدث في المستقبل البعيد، سألتها بحذر:

- سمعت أنك تجيدين اللغة الفرعونيَّة؟

ردت نادية بلغة سليمة، وبصوت يشبه التحدي:

- مثلك تمامًا.

ثم أكملت في تَحدٍّ:

- لا بد أنك الكاهن "حم نتر" آخر كهنة معبد الإله "پتاح"، أحييك على اهتمامك الشديد بالمعبد، ولكن يظهر لي أن ما قرأته عنك كان خطأًا.

غلبني الشغف وأنا أسألها:

- ماذا قرأتي عني؟

بدا الإجهاد عليها وهي تحاول الوقوف، ثم قالت في محاولة للإمساك بزمام الأمور:

- قرأت بأنك مخلص لوطنك ودافعت عن هذا المعبد بكل قوة ولم تخف قط الـ...

ترددت نادية في إكمال الجملة قبل أن تنظر بثبات في عيني، وبابتسامة جافة أكملت:

- لم تَخَف الموت على أرض هذا المعبد.

تعجبت من قولها، انتظرت قليلًا وقلت بتمهل:
- إذًا هذا ما سيكتبه التاريخ عن موتي.
بدأت في الارتكاز على العصا وحاولت كسب ثقتها، ثم هممت بطرح سؤالي:
- أتعلمين أني تمنيت من الرب أن أموت هكذا مدافعًا عنه، ولكن هل لي بسؤال لكِ؟
لم تنطق نادية وهي متوجسة، فسألها:
- هل ستنتهي حضارتنا؟
فرَدَّت آسفةً:
- نعم، ستنتهي على يد الإسكندر الأكبر، أقوى من غزوا العالم.
لم أستطع السيطرة على وقع الحدث، فما زلت أؤمن بأن حضارتنا لن تنتهي، ظهر الحزن على صوتي وأنا أستعطفها:
- وماذا يقول التاريخ عن حضارتنا؟
ردت نادية مسرعة:
- أعظم حضارات العالم وأقواها، فحتى هذه اللحظة لم نستطع اكتشافها ومعرفة كل أسرارها.
اقتربت نادية أكثر ثم ربّتت على كتفي وقالت بكل وقار:
- لن تتخيل كَمَّ الأسئلة التي أريد أن أعرفها منك، لتحلَّ لنا كثيرًا من الألغاز.

لم أهتمَّ لما تقول، أعطيتها ظهري وأنا أقول في محاولة للفهم:

- يقول ابني بأنكم أهملتم في الحفاظ على آثارنا، عار أن يطلق عليكم أحفاد الفراعنة، فقد دنَّستم كل ما تركناه لكم.

جرت ورائي وردت مسرعة:

- لا أنكر أن ما حدث من إهمال شديد، خطأ لا يُغتفر، لكن الجهل والجوع قد تسببا في ذلك، ولا أنكر أيضًا أن كثيرًا من الناس يطالبون بالحفاظ على الآثار ومعاملتها معاملة أكثر احترافية.

قاطعتها وكأني لا أبالي بما تقول:

- إذًا فابني محق بمحاولته تغيير التاريخ... أنتم لا تستحقون هذا.

ردت نادية بحزم:

- التاريخ لا يمكن تغييره، فهو العبرة التي نتعلم منها الأزمان، ولا يحق لأحد التغيير منها أو العبث فيها، لا يمكننا تدارك تبعاته،ولله حكمة في ذلك إذا كان خيرًا لنا أن تظل الحضارة الفرعونيَّة قائمة، فسيُبقيها.

- ولكنكم أفسدتموها.

- نعم، ولكننا نتعلم منها نحاول جاهدين الحفاظ عليها، فهي إرثنا الذي لن نتركه أبدًا، ثم أكملت نادية في محاولة للسيطرة على تفكيري:

- سنموت مدافعين عنها كما سنموت أنت مدافعًا عنها.

لم أستطع الرد، ناديت على الحرس لفتح الباب وإنهاء هذا الحوار، ولكنها أكملت:

- أيها الكاهن، أريد منك أن تحكم عقلك، أعلم أنَّه ابنك، ولكن ما يفعله لن يجدي نفعًا، حتى لو استطاع تغيير التاريخ، سيأتي اليوم القريب وينتهي، ولن نجني سوى مزيد من الدمار، ولا نعلم ما قد يؤدي إليه تهوره. فقد يؤدي إلى انتهاء العالم.

حاولت إخفاء دمعتي وأنا أخرج لا أطيق سماع كلمة أخرى:

- يا حراس، افتحوا الباب.

****

أخذت بعض الثَّوَاني قبل أن أدرك أنَّه نفس الحلم الذي يأتي بين حين والآخر، أرى حسام زوجي، كم أشتاق إليه!، تُرى متى سينتهي كل هذا، متى سأراه؟

ما زلت لم أستوعب وجودي في هذا المعبد، لا أعلم ماذا سيحدث، ولا يهمني في شيء. أخشى غدر الفرعون، لذا قررت سرقة الإله ولكن يجب عليَّ معرفة كيفية عملها.

فالأيام القليلة التي قضيتها هنا لم تكفِ لمعرفة التفاصيل، تُرى كيف تعمل؟!.

يجب التقرب أكثر من الفرعون، فلا وقت لديَّ وخاصةً أني لا أعرف ماذا سيحدث ومتى سيسافر. ذهبت لأتجول بين أحضان المعبد، غير مبالية بما أراه أمامي من جدران شاهقة، ورسوم مبعثرة في كل مكان، انحصر تفكيري في سرقة الإله، وأنا أبرر ما أفعله أملًا في رؤية ابني مرة أخرى، آه يا ولدي.

أفقت من شرودي على صوت طرقعة مكتومة، تأتي من آخر الغُرْفَة، ذهبت مهرولةً والفضول يملؤني. حتى إني رأيت آخر شيء يمكن تخيُّله، أو بالأدق آخر شخص يمكن رؤيته في هذا المكان.

فمن رأيته الآن هو الضابط أحمد، وقد انتابني كل مشاعر الخوف التي لا يمكنك تخيُّلها.

****

الفصل التاسع

«التاريخ سرد كاذب،
لأحداث معظمها غير مهمة،
صنعها حُكَّامٌ معظمهم من المحتالين،
وجنود معظمهم من الأغبياء».
أمبروز بيرس

شعرت بارتجاج هائل يهز جسدي، يلقفني في شتى الاتجاهات، أشعر بالألم يخترق عظامي، حاولت فتح عيني لأرى السواد يسود المكان، أسمع أصواتًا غير مألوفة تصمُّ آذاني، لا أعرف من أين تأتي، حاولت الثبات وتذكُّر ماذا حدث.

تذكرت زياد، واتفاقي معه بأني من سيقوم بالتجربة، وأنا لا أعرف ماذا سيحدث، لم يكن هناك أي تجارب سابقة من حولي، لم نكن نعرف مدى نجاحها، وحتى هذه اللحظة لم أكن أعلم هل هي تسير جيدًا أم لا.

هل أنا في عِدَاد الموتى، وما أراه هو ما بعد الموت أم لا؟، حاولت الوقوف، فوقفت لا على أرض، بل على شيء مطاط لا أدري ممَّا تكون، لا أعرف كم الوقت الذي مر أو ما يمر، وكأن الزمن توقف هنا، لمحت ضوءً خافتًا يأتي من بعيد، ثم بدأ يتسارع، ألوان قوس قُزَح أراها أمامي، زاد عددها وكأنها تتكاثر، حتى لا أستطيع حصرها.

ظللت متحفزًا للحظات، أملًا في أن يظهر أي جديد، وبلا مقدمات بدأ المكان في الاهتزاز، التفتُّ حولي، لا أجد شيئًا، شعرت بالاهتزازات تزداد، وكأنها زلزال مدمر يأخذك إلى الهلاك، ثم ارتطمت أرضًا.

كان الارتطام قويًّا حتى اعتقدت بأني لن أنجو، أسرعت بتحريك أرجلي لمعرفة هل هي سليمة أم لا، فتحركت، حاولت النهوض لم أقدر فكل عظامي تتكسر، ورأيت الغيبوبة تأتي من بعيد، لم أستطع مقاومتها.

لم أدْرِ كم مضى من وقت حتى أفقت، فتحت عيني بصعوبة لأجد مريم حولي، تجلس على ركبتيها وبيدها كوب من الماء، فقلت باندهاش:

- "مريم، أنا فين"؟

ناولتني كوب الماء وهي تقول:

- "إحنا بعيد قوي، إحنا في آخر سنة في العصر الفرعوني".

ثم تساءلت متلهفة:

- "أنت وصلت هنا إزاي، إحنا لسة ماخترعناش آلة زمن"؟

فابتسمت وأجبتها مرهقًا:

- "الحب يا مريم.. زياد فضل شهرين بيحاول يخترعها عشان خاطرك"..

تراجعت مصعوقة وقالت خائفة:

- "هو زياد هنا معاك؟

- لأ أنا قررت أن التجربة تتم عليًّا أنا بس، عشان دي أول مرة ومش مستعد أني أخسر حد".

تذكرت نادية وتناسيت الألم، وأنا أسألها:

- "نادية فين، وأنتي شوفتيني إزاي"؟

شاب التوتر صوت مريم وهي تقول مُخادعةً:

- "أنا هنا مستخبية، ونادية معرفش حاجة عنها ومشفتهاش".

أمسكت بيديها مُحاولًا النهوض، فقالت مريم:

- "أنت بتعمل إيه لازم ترتاح، شكلك مجهد.

- مفيش وقت أنا لازم أدوَّر على نادية الأول. هي أكتر واحدة حافظة المكان.

- طب استنَّى، ساعة كدة تكون الدنيا هادية وتعرف تتحرك، اوعى تخلِّي حد يشوفك. وأنا هاروح أجيبلك أكل ولبس وأجيلك".

لم أستوعب ماذا تقول، فسألتها:

- "أنتوا بقالكوا قد إيه هنا"؟

فرَدَّت بهدوء:

- "عشرة أيام حفظت فيها المخابئ كلها، مترحُش في حتة أنا هجيلك".

اقتنعت بكلامها، تركتها ترحل وجلست مُتَّكِئًا على الجدار أحاول استعادة أنفاسي.

****

انتابني التوتر عندما تركت أحمد، لماذا أتى، تُرى ماذا سأفعل الآن؟!! لا بُدَّ لي من إخبار الفرعون، قبل أن يصل إلى نادية، فوجوده، قد يتسبب في تغيير كل شيء.

تُرى أين هو الآن؟، انحرفت يمينًا أملًا في إيجاده في غرفته، ما إن رأيته حتى قلت:

- "الظابط أحمد هنا، معرفش إزاي وصل بس هو هنا".

بدَا الغضب على وجهه:

- "إزاي وصل؟

- معرفش، هنعمل إيه"؟!

خرج من غرفته سريعًا والشر في عينيه، حاولت اللحاق به، ولكني انتبهت لتركه للغرف، فانتهزت الفرصة، وأخذت أبحث عن أي شيء بخصوص آلة الزمن، إلى أن وجدت العصا ومعها لفافة صغيرة تحتوي

أداة الطرق على العواميد. أخذتهما، ثم تأكدت من ابتعاده عني، فهرولت إلى غرفتي وخبأتهما.
فهذه آخر فرصي للذهاب لزوجي.

****

لم أقدر على الانتظار أكثر من ذلك، لن أظل واقفًا هنا حتى تأتي مريم، تجولت بعيني في المكان حتى رأيت بابًا، فهُرعت ناحيته، نظرت بطرف عيني ورأيت بهو المعبد متراصًا بعواميد شاهقة،حاولت تذكر خارطة المعبد التي رأيتها مع نادية ولكن ذاكرتي لم تسعفني.
لا يوجد أحد، ولكن إلى أين سأذهب؟، درست أبعاد المكان في عجالة، وأنا أخمِّن أين يمكن لنادية أن تكون، هل هي حبيسة، أم لا؟ وكيف لمريم ألَّا تعرف شيئًا عنها، عشرة أيام تتجول في خفية دون علم من أحد، إنَّه لأمر غريب. ولكن لا وقت للمهاترة الآن، وبعد أن تأكدت من خلو المكان انتقلت خلف أقرب العواميد، وأنا أراقب الحركة أملًا في شيء يقودني إلى نادية.
لمحت بعض الحراس يحملون السيوف، فتخفيت حتى مروا، تبعتهم في خلسة، ورأيت أحدهم وهو يحمل بعض الطعام، يأخذه وينحرف يسارًا، تبعته وإذا بالغرف المتراصة على الجنبين، وموصدة بأبواب من حديد، إذًا فهذا هو سجن صغير، أدرت بصري في المكان بحثًا عن أي

شيء أختبئ فيه، إلى أن وجدت من الفجوة ما يمكنني الاختباء داخلها، تسلقتها وظللت أراقب المكان.

رأيت أحد الحراس يفتح الباب لدخول الطعام، وسمعت صوت نادية بكلام لا أفهمه، جُنَّ جنوني، فقذفت نفسي بلا تفكير أملًا في الوصول قبل إغلاق الباب.

رآني الحارس بعد أن وثبت وثبتين متتاليتين لأقترب منه أكثر، كان وقع المفاجأة عليه قويًّا فاستغللت الفرصة، وبكلتا قدميَّ ركلته في صدره، فارتمى أرضًا؛ لكنه سرعان ما نهض وهو يشهر سيفه نحوي، سارع نحوي، انحرفت يمينًا، جبته من ذراعه ودفعته بقوة ليرتطم بالحائط، وما إن ارتطم بالحائط حتى قفزت عليه وأطبقت على صدره، ثم بدأت اللكمات تنهال عليه بلا اكتراث أين تذهب لكماتي، حاول المقاومة للحظات، حتى بدأ الدم ينسال من أنفه وسمعت تكسُّر عظام وجهه حتى مات.

لم أجد الوقت لالتقاط أنفاسي؛ سارعت بحمل سيفه متوجهًا لزنزانة نادية التي تفصلني عنها أمتار قليلة، وما إن وصلت لبابها فإذا بحارس آخر يأتي من الداخل، يملأ عينيه الشر مصوبًا سيفه نحوي، وقد اتخذ القرار بقتلي دون رحمة.

****

لم أستخدم السيف منذ أيام التدريب، ولكن الأدرنالين في جسدي، وإصراري على إنقاذ نادية جعلني أتصدى لتصويبته، ولكنها كانت قوية أسقطتني أرضًا، فانتهز الفرصة لغرس نصل سيفه في قلبي، فتدحرجت سريعًا لتفادي الموت مرة أخرى، ولكنه أقوى مني، فأنا في عقر داره أستخدم سلاحًا هو يتقنه، تكومت في زاوية الزنزانة، حاولت النهوض قبل أن يقترب مني، فحاصرني وما هي إلا ضربات سريعة حتى وقع السيف مني، فأمسك بذراعي بيده اليسرى فأدركت الآن بأني سأموت، فسيف الحارس على رقبتي، ولا مفر من ذلك.

وإذا بي فجأةً أراه يقع على الأرض ورأيت نادية تقفز فوقه، لم أتردد دفعت نادية عنه بقوة ثم غرست نصل السيف في ظهره.

انهمرت دموعها بغزارة، وتحولت ابتسامتها الشاحبة إلى ضحكة غريبة ممطوطة، عجزت قدماها عن حملها وهي حائرة بين الوقوف والاقتراب، ثم احتضنتني وبللت صدري بدموعها وهي تشهق ضاحكةً:

- "الحمد لله أنك هنا، أول لما دخلت وشفتك، جريت ورميت نفسي على الحارس".

ضممتها أكثر وأنا أحاول طمأنتها:

- "متخافيش، أنا كويس، يلّا بسرعة من هنا قبل ما باقي الحراس ييجوا، ومريم هتساعدنا".

توقفت نادية وهي تقول:

- "متصدقش مريم، دي خاينة".

لم أستوعب قولها، تراجعت من الصدمة وأنا أقول:

- "إزاي؟!

- دي حكاية طويلة هحكيهالك بعدين بس يلَّا نهرب من هنا".

لم أفهم ماذا يحدث، ولكن لا وقت لذلك، وما إن تحركنا نحو باب الخروج حتى رأيت الفرعون يأتي مُسرعًا ومعه الحراس، ولمحت مريم تجري خلفهم، ثم سمعت الفرعون يقول مشيرًا:

- "محدش يتحرك".

لقد وقعت في المأزق، فلا سبيل للخروج إلا من هذا المدخل، الذي يقف الفرعون أمامه.

****

ظل المشهد ثابتًا للحظات، لا أحد يتحرك، أمسكت بنادية وجعلتها خلفي لحمايتها، وعلى بعد أمتار قليلة أمامي كان يقف الفرعون والحرس خلفه، ولمحت مريم تأتي مسرعة من بعيد.

بادرت بالكلام أملًا في كسب الوقت، ابتسمت لاستفزازه وقلت بثبات:

- "مش قلتلك هنتقابل تاني، نفس الموقف كان في عصري".

أخذ الفرعون خطوتين للأمام، وهو يقول:

- "بس المرة دي أنت في أرضي، ومتحاصر".

ثم أكمل ضاحكًا:

- "ومعكش آلة زمن ترجع بيها زي ما أنا عملت، صحيح أنت وصلت هنا إزاي"؟

لم أرد أملًا في استفزازه، فأكمل قائلًا:

- "أكيد زياد جمع الخطوط ببعض وعمل آلة وجرب فيك عشان مايمُتْش".

نظرت مريم إليَّ والفضول يملؤها، فأكملت قائلًا:

- "بلعكس هو كان عايز يسافر وأنا منعته.

- هاهاها، عشان تنقذ الحبيبة، مشهد رومانْسي، بس يا خسارة هتموتوا هنا".

حاولت توجيه الدفة لتغيير الموضوع، فقلت:

- "أنت ليه عايز تغير التاريخ"؟

شعر الفرعون بالفخر وهو يقول:

- "عشان إحنا أحسن منكوا، إحنا بنينا الأهرام والقلاع، وأنتوا بوَّظتوها، يبقى لازم تموتوا ماتستهلوش".

تدخلت نادية بغضب:

- "زي ما قُلت لوالدك هقولَّك، أنتوا تاريخ، وإحنا الحاضر مش عشان شوية تقصير، تغير كل حاجة".

- مَنْ هؤلاء؟ ومن أين جاءوا؟

ظهر شخص عجوز يرتدي ملابس الرهبان، تحرك ببطء فساد الصمت المكان حتى سمعت وقع عصاته في الأرض، أخذ يجول في المكان، ثم أكمل كلامه موجهًا الحديث إلى نادية، فتعجبت من فهمها له.

- أيتها المستقبلية، لقد قلتي بأن التاريخ يظهر حضارتنا بأحسن صوره، وها هي أيامها الأخيرة تقترب.

أجابت مريم بحذر:

- نعم، ولا يحق لأحد...

قاطعها الراهب العجوز وهو يقترب من ابنه حتى أصبح ملاصقًا له، ووجَّه كلامه له:

- سمعت يا ولدي، فما تحاول فعله قد يهدم كل ما فعله آباؤك، وأجدادك، لقد تفانينا في العمل لعقود، وقدمنا لبلدنا كل ما نستطيع، ليس من حقنا تغيير الماضي أو العبث بالحاضر.

اشتد غضب الفرعون فقاطع أباه وهو يقترب منه:

- لقد كبرت في السن، ولن تستوعب ما أريد فعله، هم لا يستحقون الحياة، بل أنا أحق منهم بذلك.

وبصرامة شديدة صاح في وجهه:
- لقد تماديت في أخطائك، كيف تكلمني هكذا؟، أنا الراهب في هذا المكان، أنا صوت الله في الأرض... لقد ربيتك على...
لم يقدر الفرعون أن يستمع لأكثر من ذلك، فأدار ظهره له وهو يقول:
- هل تظن أني أصدق ما تقول؟
كان الغضب يملأ قلبه والشر على وجهه، فسحب سيفه ثم دار دورة كاملة وغرس السيف في قلب أبيه.
لم يتوقع الراهب هذا التصرف من ابنه لقد جُنَّ جنونه، ترك العصا تفلت من يديه ووقع على ركبتيه، وبصوت مبحوح لا يكاد يسمعه أحد قال:
- اقتلوه، اقتلوا ولدي هذه رغبة الإله.
وما إن قال ذلك حتى انهالت السيوف في جسده من كل صوب؛ ساد الهرج والمرج المكان، توجه بعض الجنود إلى الراهب أملًا في مساعدته، ولكن الوقت قد نفد وفارق الحياة.
رأيت ناديةه تتجه نحوه، حاولت إمساكها فدفعتني، أخذت السيف ببطء من الأرض، فتحفز باقي الجنود، لا يعرفون ماذا يفعلون فلا قائد لهم الآن.

انتهزت نادية الفرصة وقالت بلهجة فرعونيَّة سليمة موجهةً كلامها للحراس:

- لقد مات راهبكم، مات مُدافعًا عن معبده، لم يأبه من العدو حتى لو كان ابنه، هيَّاااا انشروا الخبر وادفنوه مع العظماء، فهذا الراهب هو البطل الحقيقي، وسيتذكَّره التاريخ طالما تحيا نفوسنا.فقد مات مدافعًا عن معبده.

لم أكن أتخيل قدرته على قتل أبيه، لم أصدق ذلك، لا بُدَّ لي من الهرب الآن، فالحالة ستكون أشد سوءً بعد قليل.

هُرِعت إلى غرفتي أخذت العصا، ثم توجهت إلى المكان الذي يضع فيه العواميد، لم يلتفت أحد لي فمقتل الراهب، كان غير متوقع وانشغل الجميع بذلك، تحركت بخفة إلى أن وصلت للعواميد ثم بدأت في رصها كما رأيته يفعلها، وقفت في المنتصف ثم...

- مريم.

رأيت نادية أمامي تهتف باسمي، وكان هذا آخر ما أريد أن أراه الآن.

****

بعد أن أثارت كلماتي حماستهم، رأيت الحراس يتجهون نحو الراهب وهم يحملونه، لم يهتم أحد بنا، ورُحت أقول مسرعًا:

- "نادية، دي فرصتنا، يلا نهرب".
كان أحمد على حق، لن تُتاح لنا فرصة الهرب مرة أخرى فما إن يفيقوا مما حدث، سيسجنونا، تبعته في صمت، بدأنا نتجول بلا هدف، غلبني فضولي لرؤية باقي المعبد وأنا أقارنه في خيالي بما وصل إليه حاله في عصرنا، كم الفرق شاسع، كم أهملنا في حق أجدادنا!
وصلنا إلى بهو المعبد وكانت آثار القرابين المقدمة في الصباح ما زالت هناك، توقف أحمد وهو يسألني:
- "تفتكري آلة الزمن دي هتكون فين"؟
تنبهت فجأةً لما يقول، فسألته غير مدركة ما يعني:
- "هو إحنا مش هنرجع زي ما أنت وصلت"؟
بدَا الأسف على وجهه وهو يقول نادمًا:
- "الرحلة دي كانت ذهاب بس، مكنتش أقدر أستنَّى نتايج أحسن من كدة". بالعافية أقنعت زياد أني هرجع بآلة الزمن بتاعة الفرعون، وماسبنيش إلا لما علمني إزاي أردد قوله أنا أيضًا ولكن وقع الأصوات الآتي من الغُرْفَة المجاورة لفت انتباهي، تحركنا نحوه وما إن رأيت مريم حتى صرخت:
- "مريم".

****

رأيت مريم أمامي، ثم رأيت نادية تذهب إليها وهي تقول:

- "بتعملي إيه"؟!!

تفاجأت مريم بوجودنا، فذهبت إليها وحاولت طمأنتها:

- "نادية حكتلي كل حاجة، بس ليه عملتي كدة"؟

بكت مريم بحرقة، ثم جلست على الأرض وهي تقول:

- "لما ابنك يموت قدامك هتفهم أنا ليه عملت كدة".

اقتربت منها بحذر ولكنها كانت مستسلمة تمامًا، فاليأس غلبها، أخرجتها من دائرة العواميد، نظرت في عينيها برفق، وأنا أحاول بث الأمل فيها:

- "بُصِّي على المستقبل، أنتي متعرفيش زياد كان عامل إيه، فعلًا مش بينام، نِفْسُه يشوفك".

زاد بكاؤها وهي تقول متوسلةً:

- "زياد شاب لطيف جدًّا، أنا مقدرش أرجع وأخلِّيه يشوفني ويعرف أني خاينة، أحسنلي أموت هنا.

ثم دفعتني وهربت دون كلمة أخرى، حاولت نادية إيقافها ولكني أمسكتها وأنا أقول لها:

- "سيبيها، هي مش هترجع، ده عقاب ربنا ليها".

ترددت نادية ثم قالت:

- "أيوة بس كدة الحراس هيقتلوها".

أجبت بسرعة:

- "ولو رجعت هتنتحر، تحبي تكون خاينة وكمان انتحرت"؟

أدركت مقصده، فمريم لم تكن خائنة بطبعها؛ ولكن ظروفها كانت أشد من قدرتها على التحمل، وافقته الرأي وأنا أقول:

- "إن شاء الله هتعيش".

فابتسم دونَ أنْ ينطق بكلمة، دخلنا في صمت إلى وسط الدائرة، بدأ بالطرق على العواميد، وما هي إلا لحظات حتى اختفينا.

****

فركت عيني من التوتر، وللمرة الأولى منذ زمن، أرى الطعام أمامي ولكن لا أستطيع الأكل رغم جوعي الشديد، فأنا لا أعلم ماذا حدث للظابط أحمد، هل مات؟! هل عاش؟! أم أنَّه تائه بين الأزمان؟!

لا أجد شيئًا يُنْبئني بنجاح التجربة، ها قد مرت ثلاثة أيام، آتي كل صباح أنظر في معملي عسى أن أراهم. ضربت المكتب بيدي وقلت وأنا أكلم نفسي:

- "إزاي خلِّيته يسافر، إيه الجنون ده عقلي كان فين"؟!

كاد الجنون يصيبني، أخذت في تذكُّر الأحداث، وكيف تعلَّقت بمريم رغم أني لم أرَها إلا مرات قليلة، هل جذبتني قصتها إليها، أم لعدم تقربي من النساء كثيرًا، تُرى أتبادلني الشعور أم لا؟

رأيت رعشة في الأنوار، فانتفضت من ذكرياتي وأخذت الحذر فأنا لا أعرف ما يحدث، ثم دوى صوت مكتوم؛ أغلقت الأنوار للحظة وما إن عادت حتى رأيت أحمد ونادية في وسط الغُرْفَة.

فهُرِعت نحوهما وأخذتهما بالأحضان وأنا أصيح بفرحة:

- "حمد لله على السلامة، أنا مش مصدق عينيَّا. أنتوا حقيقيين ولَّا باحلم"؟

لَمْ تَمْضِ لحظة حتى لاحظت عدم وجود مريم معهما، فسألت بتوجُّس:

- "مريم فين"؟

نظرت نادية إلى الأرض ثم همَّت بقول شيء ما، لكن الضابط أحمد سبقها قائلًا:

- "ماتت، مريم ماتت بتدافع عن وطنها".

رأيت التعجب على وجه نادية ولكنها ظلت صامتة؛ غلبني الحزن وانخرطت في البكاء، فأكمل أحمد وهو يشد من أزري:

- "مريم ضحت بحياتها عشان نعرف نرجع، لازم نودعها بفخر، ولازم أنت كمان تكون فخور بيها، عشان التاريخ هيفتكر التضحية دي".

لم أقدر على الاستمرار في الوقوف، فلم أتخيل موتها قط، بل تخيلت حياتي معها.

****

- "أنت إزاي كدبت على زياد كدة"؟

قلتها بانزعاج بعد أن تركنا زياد ليذهب لبيته، فلم أعرف كيف جاريته فيما يقول، فاستوقفني أحمد وهو يقول شارحًا:

- "زياد عالم عظيم، لسة صغير وهيفيد العالم كله بعلمه، تخَيَّلي معايا لو عرف الحقيقة، إيه ممكن يحصلُّه... هينتهي، تخيلي معايا كدة... لو الإنْسَان الوحيد إللي حبتيه طلع خاين لبلده"...

بدأت في استيعاب ما يقول ولكني قلت معاندةً:

- "أيوة بس إحنا كدة بنشوِّه التاريخ وبنقول حكاية كذب".

ضحك أحمد وقال بثقة:

- "إحنا إللي بنكتب التاريخ، بنكتب الصالح العام، مش الحقيقة. نص تاريخ العالم كدب في كدب".

لم أستطع مجاراته أكثر من ذلك، فسألته:

- "وإيه هيحصل بعد كدة"؟

- ولا حاجة، هتتكرَّم ويتكتب اسمها في التاريخ وتضحيتها هتُدرَّس في المدارس كمان".

حاول أحمد تغيير الموضوع وهو يقول:

- "نادية، مسمعتش رأيك لما قولتلك بحبك".

وهنا احمرَّ وجهي نجلًا، ثم أدرت رأسي للوراء والسعادة تملأ وجهي وقلت:

- "أنا تعبانة وعايزة أروَّح... هتوصَّلنِي"؟

****

